

الفصل الرابع

التعامل العقلاني مع المتغيرات التاريخية

ربما نكون قد استطعنا في الفصل السابق وما قبله أن نثبت بعض الحقائق الدالة على نفس النزعة العقلانية والعملية في حياة المجتمع النجني القديم والزهد الواضح في الميل إلى الغيبات والمتاثيريات المسرفة ، إنطلاقا من حقائق جغرافية واقتصادية واجتماعية واضحة كما رأينا ، ويبقى علينا في هذا الفصل أن نستكمل الجانب الآخر من هذه المسألة ، وهو أنه إذا كان النجنيون منذ وقت مبكر قد سجلوا مؤشرات ملحوظة تؤكد اتساع الروابط القوية بين العقل والعمل والزهد فيما وراء الطبيعة في نطاق حياتهم الخاصة والعامة داخل موطنهم ، فما هو موقفهم من مجمل المتغيرات التاريخية الهامة خارج موطنهم ؟ وكيف تعاملوا معها في فترات قوتهم السابقة ومراحل ضعفهم اللاحقة بالذات ؟ ؟ كيف تعاملوا ثقافيا ووجدانيا في فترات ضعفهم مع أطماع الغزاة الاجانب وحملاتهم المؤطرة بتيارات ثقافية ودينية شديدة التعقيد من يهودية ومسيحية على السواء حتى ظهور الدعوة الإسلامية الأقرب اليهم لحما ودما ، وكيف تعاملوا معها أيضا ومع كل متغيرات التاريخ اللاحقة حتى يوم الناس هذا ؟ هذا ما سنحاول البحث في الإجابة عليه من خلال فقرات هذا الفصل .

الفرض والتفسير المنهجي

مشكلة المرونة أو التصلب الحضاري والثقافي في كل اجتماعات والدوائر الحضارية والثقافية داخل الأمة أو المجتمع الواحد أحيانا ، ومدى قابلية كل ذلك للتأثر بما يجري أو يحد من حولها من متغيرات تاريخية من ناحية ، والتأثير فيها من ناحية أخرى ، بمقاييس أسرع وأيسر أو العكس ؛ هي من المشكلات البارزة التي شغلت الكثير من الدارسين والباحثين في حقول العلوم

والدراسات الإجتماعية والانسانية المختلفة الحديثة وبالذات المهتمين بفرع علم الانثروبولوجيا الثقافية ، ونستطيع تحديد النتائج المستخلصة من هذه الدراسات والخطوط العريضة شبه المتعارف عليها في هذا الشأن في افتراض أساسى شبه محقق ، ومجموعة من النتائج التفسيرية المنبثقة عنه .

فالفرض المحقق يتمثل في أنه كل ما كانت الثقافة السائدة في أى مجتمع ، والأصول الحضارية لها أكثر مرونة وقابلية للأخذ والعطاء والتغيير في حدود مناسبة ، كلما كانت معطياتها ونتائجها أكثر إيجابية وفائدة لاستمرار التقدم والنمو وازدهار الثقافة نفسها والعكس بالعكس صحيح ، فكلما كانت الثقافة والأصول الحضارية لها أكثر تصلبا وانغلاقا ، ورفضاً لكل المتغيرات إجمالا ، كلما كانت نتائجها ومردوداتها أكثر سلبية وتعويقا لحركة التقدم والنمو ، وتهديداً لهذه الثقافة بالإنقراض .

وترتكز فاعلية هذا الفرض شبه المؤكد على مجموعة حقائق تفسيرية لكل من شطرى هذا الفرض ، أولها أن مبدأ توفر المرونة والقابلية والأخذ والعطاء والتغيير . . . الخ في مضمون العناصر الحضارية والثقافية لأى مجتمع من المجتمعات مثلاً ، والذي بالرغم من أنه قد يفرز نتائج متشابهة - إيجابية بشكل عام - إلا أنه قد يركز جوهرياً على أسس غير متشابهة تماماً في كل الحالات ، بل قد تكون متناقضة إلى حد كبير ، لأن توفر المرونة والقابلية الحضارية والثقافية لأى مجتمع ، بمقاييس عالية تجاه المتغيرات يرتكز أساساً ، إما على موقف قوى جداً ، أو ضعيف جداً ، في جوهر التكوين الكمى والكيفى لعناصر التراث الحضارى والثقافى لهذا المجتمع أو ذاك .

ففى الحالة الأولى - حالة القوة - حينما يكون الكم المتراكم لعناصر الحضارة والثقافة^(١) كبيراً وذى كفيات ومضامين عقلانية وعلمانية ولو بحد

(١) هناك عدة تعريفات وكثير من وجهات النظر حول مواضيع الحضارة والثقافة والمدنية وتعريف كل منها وعلاقتها بالآخر ، ونحن نستخدم هذه المصطلحات هنا وفقاً لوجه نظر وتعريف محدد ، يتلخص في أن العناصر الحضارية هى كل ما يمت إلى التاريخ من بقايا وأفكار ومعلومات ولم يعد لها وظيفة أو تأثير مباشر في حياة الناس إلا بطريقة غير مباشرة ، =

نسبي ، فإن مثل هذا الوضع ييسر فرصة المرونة والأخذ والعطاء والتعامل مع المتغيرات الجديدة بسهولة من موقف القوة أو الند للند على الأقل ، فلا يخشى الوضع الحضارى والثقافى للمجتمع أن تبتله المتغيرات الجديدة القادمة من الخارج أو النابعة من الداخل ، وتهدد كيانه وشخصيته ، بل على العكس فإنه قد يترك هو تأثيره فيها من جهة ، ويستمد منها مضامين جديدة تزيد من قوته وحيويته ، ويمكن أن تشكل الحضارة والثقافة اليونانية والعربية القديمة ثم الأوربية الحديثة نموذجاً حياً لهذا النوع من التعامل فيما بينها عبر التاريخ القديم والجديد .

أما فى الحالة الثانية — حالة الضعف — فهو يحدث حينما يكون الكم الحضارى المتراكم محدودا ، والنظ الثقافى السائد غير متماسك بما يكفى لتحقيق طرف متكافئ أو موجب على الأقل فى التعامل مع المتغيرات الجارية فتكون حالة المرونة وعدم الرفض والمقاومة العقلانية ناجمة عن موقف ضعف ، وميول للاستسلام والتقصص لكل ما تأتى به المتغيرات الخارجية من عناصر ثقافية وحضارية ، وابتلاعها بغير نظام وكيفما أتفق ، والتى قد تفرض فرضاً ولا تجدى معها أية مقاومة أو تعطى معها أى فرصة للاختيار ، مما يهدد العناصر الحضارية والثقافية الأصلية على تواضعها بالانقراض ، ويهدد شخصية الوجود القومى للمجتمع نفسه بالأنهيار ، وبالذات حينما يكون تيار المتغيرات على جانب كبير من القوة والثقل والفاعلية .

ويمكن أن تشكل متغيرات الثقافة والمدنية الأوربية الحديثة إزاء بعض المجتمعات والجماعات البسيطة وشديدة التخلف فى أفريقيا وآسيا وأستراليا

= أما الثقافة أو العناصر الثقافية فهى مجموع المفاهيم والأدوات والمعايير المختلفة المنظمة لحياة الناس الراهنة وعلاقتهم ببعضهم والتى قد يتحول بعضها بالتدريج إلى عناصر حضارية تاريخية حينما تفقد وظيفتها بحكم التطور ، أما المدينة فتتمثل فى تيار التجديد وعناصر الموضة من كل شئ ، والتى قد بتقبل المجتمع بعضها وتتحول إلى عناصر ثقافية ذات دور بارز فى تنظيم المجتمع ، ولقد عالجنا هذا الموضوع فى بحث خاص بالتفصيل فى مطلع كتابنا : المنظور العلمى للثقافة المنشور عام ١٩٧٣ . وبصورة أكثر عمقا وتفصيلا فى كتابنا الأكثر حداثة وحدة ، وهو كتاب : المثقفون فى البلاد النامية ، بحث فى الفئات والعلاقات الطبقية ، مع دراسة تطبيقية عن المجتمع اليمنى ، عالم الكتب بالقاهرة ١٩٨٠ وبالذات الفصل الأول إجمالا .

وأمریکا اللاتينية ، نموذجاً حياً لهذا النوع من التعامل غير المتكافئ منذ القرن السابع عشر وحتى اليوم ، والذي أسفر في كثير من الحالات عن تدمير حقيقى للوجود القومى والحضارى لهذه المجتمعات تماماً ، والتي أصبحت مجرد ملحقات حضارية وثقافية مشوهة للمجتمعات الأوروبية ، مما يعرف بالمجتمعات الأفريقية واللاتينية الناطقة بالفرنسية أو الانجليزية أو الأسبانية . . . الخ . (١)

أما الشرط الآخر من الفرض السابق الذى يشير إلى حالة التصلب والانغلاق والرفض تجاه المتغيرات وما يسفر عنها من نتائج سلبية ، فإنه هو الآخر يتركز على موقف قوى جداً ، أو ضعيف جداً ، ففى الحالة القوية حينما يكون الكم الحضارى المتراكم على جانب كبير من الضخامة والعمق والتشعب والتعقيد ، وكذلك النمط الثقافى السائد المستمد منه والمعبر عنه ، وبحيث يكون هذا الكم الحضارى والثقافى ذا كفاءات ومضامين يغلب عليها الطابع العقائدى السلبى والمتشدد والمتعصب ، فإن من شأن مثل هذا الوضع الحضارى والثقافى هو أن يمارس تلقائياً ومن موقع القوة موقف رفض اجتماعى صلب ومتشدد إزاء كل المتغيرات الجارية ، سلبية كانت أم إيجابية ، والتي قد لا تكون هذه المتغيرات من الجدية والفاعلية فى مستوى يمكنها من فرض تأثيرها من موقف أقوى وحاسم ، يتجاوز قوة وفاعلية الطرف الآخر ، وتستطيع القارة الهندية بأكملها أن تقدم لنا أبرز نموذج لهذا الموقف الحضارى والثقافى حتى اليوم ، والتي ما تزال تمثل أعظم قلعة حضارية وثقافية واجتماعية للصمود التقليدى السالب تجاه كل المؤثرات ومتغيرات العصر داخلية كانت أم خارجية رغم كثافتها وقوتها .

أما فى حالة الموقف الضعيف المتعلق بهذا الجانب فهو أنه بالرغم من عمق وتماسك العناصر التراثية والثقافية وإصرارها على المقاومة والرفض لمفعول المتغيرات ، إلا أنها لا تشكل ظاهرة عامة فى المجتمع بقدر ما أنها تشكل

(١) راجع كتابنا : المثقفون فى البلاد النامية ، بحث فى الفئات والعلاقات الطبقية ، مع دراسة تطبيقية عن المجتمع اليمنى ، عالم الكتب بالقاهرة ، ١٩٨٠ ، وبالذات الفصل الرابع بصفة عامة .

دوائر إجتماعية ضعيفة أو ما يعرف بالبقايا أو الجيوب الحضارية المغلقة ،
التي صارت كذلك بحكم قوة المتغيرات التي قضت على طابعها الشمولى العام
ونقلتها إلى هامش الحياة الاجتماعية ، أو بحكم تكوينها الجزئى أصلاً ، والتي
يمكن مشاهدتها حتى فى أكثر المجتمعات تقدماً ومدنية ، عوضاً عن المجتمعات
السائرة فى طريق التقدم ، وبما أنها لا تشكل ظاهرة عامة فهى قد تعوق
بعض فعاليات هذه المتغيرات إلا أنها لا تحول دون ذلك بقدر ما أنها تعمل
على المحافظة على بقائها وتكييف نفسها فى نطاق هذه المتغيرات نفسها .^(١)
وذلك على نحو ما تفعله بعض المائلات أو الجماعات من الإصرار على عدم
تعاطى المأكولات واستخدام الأدوات المصنعة بطريقة آلية فى عصر تحكمه
الآلية المطلقة ، أو اعتقادهم العميق بوجود الأرواح الشريرة وقتلها على
التأثير فى حياتهم وقيامهم فى حياتهم الخاصة بممارسات وتصرفات معينة لإزاء
مثل هذه القضية ، رغم أنهم ينكرون على أنفسهم ذلك فيما لو سؤلوا عنه
بصورة علنية فى الحياة العامة .

أساسيات التعامل مع المتغيرات التاريخية فى المجتمع اليمنى

وبعد هذا المدخل العام والمركز باختصار كبير حول ظاهرة التبادل
الحضارى والثقافى ، وللعوامل المتحركة فى تحديد حجمه وكثافته ، نعود
إلى صميم موضوعنا لكى نتعرف على الموقع الذى تحتله عناصر التراث
الحضارى والثقافى اليمنى ، وإلى أى نمط تنتمى من الأنماط الحضارية والثقافية
السابقة ؟ .

إذا ما تذكرنا بأن عناصر التراث الحضارى والثقافى للمجتمع اليمنى هى
جزء لا يتجزأ من جوهر المضمون الكلى لتراث وثقافة المجتمع العربى كله
الذى سبقت إليه الإشارة ، إن لم يكن بحق هو إحدى أصوله ومصادره
الأساسية الأولى ، إذا ما تذكرنا كل ذلك لأصبح من السهل علينا كثيراً

(١) أنظر فى هذا الموضوع بالتفصيل والتحليل الكافى وكتابنا : المنظور العلمى للثقافة
دراسة خاصة عن المجتمع اليمنى من ص ٢٣ إلى ٥٣ طبعة القاهرة ١٩٧٣ م .

تحديد الموقع والمكان الذى يحتله المضمون الثقافى والحضارى للتراث البنينى قديمه وحديثه فى الخارطة السابقة ، وهو الموقف الذى يتميز بالقوة والأصالة والعمق من جهة ، والعقلانية والمرونة فى التعامل من جهة أخرى . ويبقى علينا فقط أن نركز الحديث حول بعض السمات والمظاهر الأكثر خصوصية وتميزاً لعناصر التراث الحضارى والثقافى لهذه المنطقة من الوطن العربى (اليمن) ومدى ما يتميز به من المرونة والقابلية للأخذ والعطى والتعامل الإيجابى مع الظروف والمتغيرات المختلفة عبر التاريخ (١) .

وعليه فإنه إذا ما أضفنا إلى الحقيقتين السابقتين اللتين سبق تحليلهما بالتفصيل فى الفصول السابقة ، حول حقيقة شيوع العقلانية وضعف الجانب الاعتقادى فى التراث البنينى بعامة وقدرته على تطويع الظروف الطبيعية والحقائق الاجتماعية لخدمة أهداف موضوعية وإنسانية ، فإنه يمكن أن نستخرج من خلال كل ذلك وبصورة جدلية أولى البراهين الدالة على إمكانية توفر المرونة والقابلية للأخذ والعطاء والتعامل الإيجابى مع مختلف الظروف والمتغيرات الحضارية والثقافية والتاريخية من موقف حضارى قوى ومتماسك . ذلك أن مجتمع يغلب على عناصر ثقافته وتراثه بعامة الطابع العقلانى والتقلص فى الذهاب إلى الغيبيات المشوهة ، كالمجتمع البنينى ، وكذلك حسن استخدامه وتوظيفه لمعارفه الطبيعية والاجتماعية لخدمة أغراض موضوعية وإنسانية على نحو ما سبق فى الفصول السابقة من هذا البحث ، فإن مثل هذه العناصر لابد وأن تكون من باب أولى متميزة بالمرونة وحسن التعامل مع المتغيرات التاريخية المختلفة ، وإذا كانت كل التحليلات السابقة فى الفصول السابقة تستطيع أن تقدم لنا دالة غير مباشرة على صدق وموضوعية هذد القضية ، فإن الوقائع المادية والتاريخية تستطيع بدورها أيضاً أن تقدم لنا دلائل وأسانيد حقيقية مباشرة وملموسة كذلك حول نفس القضية .

فالمجتمع البنينى والفرد البنينى يتمتع بمرونة وقدرة غير عادية على تغيير مواقفه ومفاهيمه وتعديلها أو استبدالها ، وهو شديد التطلع والتجربة لكل ما يسمع

عنه أو يعرض عليه ، ولا يحس في نفسيته أو وجدانه ما يعيق فاعلية هذه القدرة وإشباع هذه الرغبة ، طالما وأن الظروف الواقعية قد أعطته فرصة حقيقية للممارسة ذلك ، فهو لا يتردد ولا يخضع الأمر حتى لموازين الربح والخسارة المادية . إن أول ما تتميز به مشاعر وأحاسيس الإنسان البني هو سرعة الإستجابة للأحداث من مركز القوة والتفاؤل للراي إلى تحقيق الذات مهما كانت أخطاء الحساب ، حيث لا ينظر إلى الأحداث والوقائع والمتغيرات التاريخية في دما المجتمع ، إلا باعتبارها مجرد فرصة نادرة للتعامل معها بأي ثمن ، مع أفراض مسبق وهام جداً هو الحصول على المزيد من تحقيق الذات وتأكيد وجودها من خلال هذا التعامل ، والخروج في النهاية بمزيد من المكاسب والفوائد المادية والمعنوية ، حتى ولو كانت الإمكانية الحقيقية لتحقيق مثل هذا الفرض غير موجودة حقيقة ، إلا أنها تفترض فرضاً في البداية ، حتى إذا ما تحققت النتائج التي قد تكون سلبية حدث رد الفعل المباشر والسريع بهدم ورفض كل ما يتعلق بهذا الموقف مادياً ومعنوياً وبنفس السرعة التي أستجيب له بها ، والبدء في التطلع إلى أحداث ومواقف جديدة وهكذا (٢) . وبسبب هذه الخاصية الجوهرية في التكوين الحضارى والفهمى للمجتمع البنى دخل بسببها في كثير من أحداث التاريخ البارز بكل ثقله وخروج منها كاسباً حيناً وخاسراً وممزقاً أحياناً كثيرة ، وبالذات خلال المراحل المتأخرة من ضعف وتدهور حضارته المزدهرة ، بدءاً بتجربة اليأس مع اليهود والمسيحية ، وانتهاء بالأمل وبعض الحقيقة التي أنت بها الدعوة الإسلامية في عصرها الذهبي في صدر الإسلام ، والتي ما كادت تبدأ عملياً في عهد عمر حتى أفرغت من مضمونها جوهرياً في عهد عثمان وبشكل نهائى في عهد معاوية بالنسبة لليمنيين وغير اليمنيين ، وصولاً إلى أكثر المتغيرات التاريخية حدائنة وأكثر قوة وتأثيراً في العصور الحديثة

(١) راجع تفاصيل أكثر حول هذه النقطة في كتابنا : التراث الشعبى وعلاقته بالتنبية في البلاد النامية . دراسة تطبيقية عن المجتمع اليمنى ، مركز الدراسات اليمنية ، صنعاء ١٩٨٥ ، ص ٣٢٢ إلى ٣٢٨ .

القادمة من أوروبا والمقرونة بحركة استعمارية واسعة النطاق ، وحتى المد الإستراتيجي الأهمي المعاصر ، وذلك على نحو ما سنرى في الفقرات التالية .

تجربة اليأس مع اليهودية والنصرانية

« تجربة اليأس مع اليهودية والنصرانية » هذه هي أقرب العبارات الدالة على الإشارة إلى مرحلة من أشد مراحل التاريخ اليمنى دقه وحساسية وأكثرها اضطراباً وتمزقاً ، فقد أراد اليمنيون بعد انهيار مرافق حياتهم الاقتصادية والسياسية المزدهرة وبدأ الإحساس باليأس والضياع يمتلك نفوسهم ، أرادوا أن يبحثوا عن تعويض عاجل لما فقدوه من خلال أشد المتغيرات التاريخية قربا منهم والأكثر انتشاراً وتأثيراً على مستوى منطقة الشرق القديم بأسره ، وحتى روما وجنوب روسيا في القرن الخامس والسادس الميلادي ، وهو صراع اليهودية في فلسطين وشمال الجزيرة العربية ، والنصرانية في روما وبقية بلاد الشام ، والوثنية في فارس ، حيث كانت هذه المتغيرات السياسية الأيديولوجية والعقائدية تعيش مع بعضها صراعات دينية وأيديولوجية وقومية شديدة التعقيد ، منذ بداية القرن الميلادي الأول وظهور المسيح وصلبه . وذلك بعد أن ظل اليمنيون في غنى عن الدخول في هذا الصراع العقائدي قبل ظهور المسيحية وبعد ظهورها بما يزيد على ثلاثة قرون كاملة أو يتأثروا بها لأسباب ذاتية وموضوعية وحضارية سبق الإشارة لبعضها في الفصل السابق وسنتناولها هنا بتفصيل أكثر بعد قليل .

ولكن اليمنيين كانوا أشبه بالمستجير من الرمضاء بالنار كما يقال ، فأرادوا أن يستعصموا عن العقل الذي افتقدوه ويبحثوا عنه في أسطورة « السامري وموسى » والقوة والخير الكثير الذي جفت موارده من بين أيديهم بالانتظار تحت « نخلة السيدة العذراء » . وإذا كان ما يؤخذ على اليمنيين هو أنهم قد أخطأوا في ذلك فعذرهم أنهم لم يجدوا في محنتهم ما يفعلونه سواء ، إنها تجربة اليأس التي ربما أنهم كانوا يدركون نتيجتها مقدما . ومع ذلك فإنه بالرغم من كل ما لحق بالبقية الباقية من مقومات حياتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية من خراب ودمار وفقدان للحرية والسيادة الوطنية في كثير من الأحيان نتيجة الدخول في هذه اللعبة بطريقة

مباشرة وغير مباشرة ، إلا أن الشيء الوحيد الذى احتفظوا به هو أنهم لم يستسلموا وجدانياً وحضارياً لتأثير هذه المتغيرات الحادة التى اقتحمت عليهم عقر دارهم أكثر من مرة ، وظلت بالنسبة لهم عبارة عن موجات سيامية وعسكرية لا أكثر ولا أقل ، فإذا كانوا قد تجرعوا ويلاتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية فإنهم قد نجوا مما هو أسوأ فى مضامينها العقائدية والميتافيزيقية المقرون بحمى التسلط السياسى والعنصرى للجماعات الغازية تحت ستار الدين من يهودية أو نصرانية .

ذلك أنه من الأمور الملفتة للنظر وذات الدلالة أن الديانة اليهودية التى انتشرت فى شمال الجزيرة وحتى نجد والحجاز ، وهى من أقدم الديانات السايوية الرسمية التى رافقت معظم الحضارات القديمة ، لم يتأثر بها اليمنيون أيام ازدهارهم الحضارى قط ، ولم يتم ذلك إلا عند الضعف والتدهور الحضارى فى مراحل لاحقة ، وبعد ظهور المسيحية نفسها ، فلم يستدل على أى شيء ليثبت واقعياً قبل عهد « ذونواس » الذى شغل الربع الأول من القرن السادس الميلادى بأن الديانة اليهودية قد عمل بها كديانة رسمية للدولة والمجتمع اليمنى القديم ، بالرغم من أن هذه الديانة الضاربة فى القدم كانت هى أقرب إليهم وإلى علمهم ومعارفهم أكثر من غيرهم ، وما أورده الدكتور جواد على من أن دخول اليهودية إلى اليمن مرده إلى اتصال اليمن من عهد قديم بطرق القوافل التجارية البحرية والبرية ببلاد الشام ، وأن قدماء الحميريين كانوا فى بادئ أمرهم على دين يهود ، دخلوا فيه أيام ملكة (سبأ) المعروفة بقصتها الأسطورية مع سليمان التى يفترض « وندل فليس » أن تاريخ عهدها يرجع إلى ٩٥٠ قبل الميلاد^(١) ، فإن مثل هذه الأمور هى أمور ماتزال افتراضية لا نجد لها أى سند حقيقى حتى الآن ، حتى ملكة سبأ هذه نفسها (بلقيس) لم يعثر بعد على أى مستند من النصوص القديمة تؤكد شخصيتها بدقة ، ما عدا ما تشير إليه القصص والأساطير والكتب المقدسة ، كما يذهب البعض إلى أن بلقيس هذه شخصية أسطورية أكثر من

(١) راجع محمود كامل الهامى : اليمن شأله وجنوبه تاريخه وعلاقاته الدولية ، دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٦٨ ، ص ٦٤ ، وأنظر أيضاً جواد على : الفصل ج ٣ ص ١٧٠ .

كوبها واقعية ، وأنها قد وضعت ضمن ما وضع من « الإسرائيليات ^(١) » . كما أنه قد ثبت أن الأقليات المحدودة من اليهود التي كانت تتواجد في اليمن من وقت لآخر منذ زمن مبكر كانت عبارة عن أقليات نازحة أصلاً بحثاً عن مستقر ومأمن من البطش الروماني قبل وبعد تدمير القدس في أواخر القرن الأول الميلادي ^(٢) . كما أن الديانة المسيحية لم يسمع عنها في اليمن وتلاحظ كظاهرة سياسية واجتماعية عامة إلا في فترات الضعف والتدهور الحضارى أيضاً ، وبعد أكثر من خمسة قرون من ظهورها ، والتي نشرها الأحباش أو حاولوا نشرها على الأصح ، وتقبلها اليمنيون وتعاملوا معها على النطاق السياسى فقط لفترة وفي ظروف سياسية واجتماعية معينة .

فبعد أن فقد المجتمع اليمنى عهد حضارته الذهبية الزاهرة التي كان يستمد منها ذاتياً فروضه النظرية وممارساته التطبيقية بصورة مباشرة في بناء نفسه وتقديمه من ناحية ، وتعامله مع الغير من ناحية أخرى ، بدأ يبحث عن تعويض غير مباشر من خلال التحمس للأحداث والمتغيرات التاريخية من حوله ، والتفتيش عن نفسه وذاته الممزقة وشبه الضائعة من خلالها بلا كلل ولا توقف حتى اليوم ، فلقد تحمس اليمنيون بعد انهيار حضارتهم مباشرة قبيل الميلاد وبعد الميلاد لكثير من المبادئ والأيدولوجيات السياسية والدينية من يهودية ومسيحية ، والتي تعتبر من أهم وأبرز أحداث التاريخ السياسى والاجتماعى لمعظم المجتمعات الإنسانية المعاصرة ، لا خوفاً أو حباً لذات المبادئ والأيدولوجيات نفسها ، بقدر ما هو بحثاً عن أنفسهم وذاتهم المفقودة من خلالها .

فقد اقتربوا من اليهودية سياسياً وأيدولوجياً وليس عقائدياً ، ودان بها بعض ملوكهم وتعصبوا لها وقتلوا عنها بحد السيف ، وقصة الملك « ذونواس » اليمنى اليهودى في صراعه مع الأطماع الأجنبية المستمرة بثوب المسيحية ، ليست بخافية في التاريخ ، وبنفس السرعة التي اعتنقت بها اليهودية كبداً سياسى واجتماعى عام في المجتمع تم التخلي عنها بعد فترة قصيرة من عمر الزمن ، لأن اليمنيين لم يستطيعوا أن يجدوا فيها التعويض والبديل الكافى عما فقدوه من مفاهيم ومضامين حضارية وعقائمية من نوع آخر .

(١) راجع شوق عبد الحكيم : أساطير وفلكلور العالم العربى (مرجع سابق) .

(٢) محمود كامل المحامى : اليمن تاريخه وعلاقاته الدولية ، ص ١٢٣ ،

(مرجع سابق) .

كما تحمسوا للمسيحية بعد ذلك بنفس الطريقة ولنفس الأسباب ووصلوا في النهاية إلى نفس النتائج ، ولقد كانت قصة الملك سيف بن ذى يزن الذى حاول أن يوطد أسس مبادئ أيديولوجية وسياسية علمانية وطنية متحررة من نوع جديد على أنقاض بقايا اليهودية والمسيحية اللتين فشلنا في القضاء على الغربة النفسية والتمزق والضيق الوجداني في حياة المجتمع اليمني هي أعظم دليل على ذلك ، بل لقد كان تجريب اليمنيين لليهودية والمسيحية في حل مشاكلهم السياسية والاجتماعية والحضارية بصفة عامة كان من أهم أسباب التمزق والخلافات والفتن والصراع بين اليمنيين أنفسهم من الأقبال والأدواء الأقطاعيين الذى بدء كل منهم يستقل بجزء من البلاد ويتصرف به كيف شاء ، والذى كان قد بلغ ذروته في تلك المرحلة بالذات وسهل للغزو الأجنبي الحبشي والفارسي دخول البلاد ، ولكن الزمن لم يمهل سيف كثيراً ولم يتح لأحد من بعده فرصة الاستمرار والمحاولة ، لوقوع البلاد تحت السيطرة السياسية المباشرة للفرس وإنتعاش ممالك الأدواء والأقصاص من جديد بعد مقتل سيف بن ذى يزن الذين أتوا كمساعدين وتحولوا بعد مقتل سيف غيلة إلى مستعمرين جدد قبل مايقرب من خمسة وعشرين عاماً من ظهور الدعوة الإسلامية (١) .

ومن أكثر الأمور دلالة ووضوحاً على أن اليمنيين قد تعاملوا مع اليهودية والمسيحية في فترات ضعفهم تعاملًا سياسياً واجتماعياً وليس تعاملًا عقائدياً ودينياً على الإطلاق هو المقياس الزمني نفسه الذى لايتعدى المائة عام منذ أن بدأت اليهودية والمسيحية تبرز على سطح الأحداث السياسية والاجتماعية في اليمن حتى انتهت تماماً ، بدءاً بذى نواس اليمني اليهودى ، مروراً بأبرهة المسيحي الحبشي ، وحتى ذوزين الذى لم يكن ليهوديا ولا مسيحيا، بل تعاملوا معها كموجات سياسية فقط بالمقياس الزمني لعمر التاريخ والزمن المطلوب لظهور حضارة أو ديانة كبيرة كاليهودية أو المسيحية أو في أى مجتمع ، ثم اختفائها منه ، والذى يحتاج حقيقة إلى آلاف من السنين ، بينما الأمر قد اختلف جذرياً بالنسبة لليمن وعلاقتها باليهودية والمسيحية ،

(١) راجع تاريخ اليمن السياسي للحداد ص ١٠٧ إلى ١١٨ الطبعة الثالثة ١٩٧٦ عالم للكتب القاهرة .

فإذا علمنا بأن الديانة اليهودية لم يستدل عليها في حياة اليمنيين وحضارتهم كظاهرة سياسية واجتماعية وحضارية قبل عهد الملك ذونواس الحميري الذي يقدر « هومل » فترة عهده بين عامي ٥١٥ إلى ٥٣٥ ميلادية ، وأن أول ظهور للمسيحية في اليمن حسب رأى الدكتور جواد على هو في أيام قيصر أنسطاس عام ٥١٨ ميلادية . وبلغت ذروة انتشارها وعموميتها على أيدي الأحباش الذين استوى لهم الأمر في اليمن نهائياً على يد أبرهة الأشرم من عام ٥٣١ أو ٥٣٥ وحتى عام ٥٧٠ م وهو عام غزوه الفاشل لمكة ومات بعدها بسنوات قليلة وخلفه ابنه يكسوم لمدة تسعة عشر عاماً تضاف إلى مدة أبيه لتصبح المدة الحقيقية لحكم الأحباش وانتشار المسيحية هي من عام ٥١٨ - ٥٨٩ ميلادية حيث كانت حركة سيف بن ذى يزن قد بدأت والتي تقلصت بانتصارها المسيحية نفسها ، وبدأ يسود اتجاه سياسى علمانى وثنى إن جاز التعبير أكثر منه دينى في عهد سيف ، ثم عهد السلطة الفارسية من بعده ، والتي امتدت هذه الفترة من عام ٦٠٠ ميلادية تقريباً حتى أسلم باذان عام ٦٢٨ بعد أن كان اليمنيون قد تخلوا عن كل من أصول اليهودية والمسيحية بعد طرد الأحباش ، واعتنقوا الدين الإسلامى . فإذا ما حققنا كل ذلك لأدركنا بدقة بأن الفترة الزمنية التي بدأ فيها اليمنيون اعتناق اليهودية والمسيحية - إذا جاز هذا التعبير - وحتى استأصالتها من حياتهم السياسية والدينية تماماً لا تتعدى مائة سنة من عام ٥٠٠ حتى ٦٠٠ من الميلاد على أبلغ تقدير ، وذلك هو المبرر الذى أجزنا لأنفسنا من خلاله استخدام مصطلح دخول اليمنيين في اليهودية والمسيحية بسرعة « البرق » وخروجهم منها بسرعة « الضوء » وكأنها بذلك موجات سياسية فقط ولم تجد لها أى طريق حضارى عقائدى حقيقى في نفوس اليمنيين (١).

الحركة البزنية بين تخاذل الاقطاع المحلى وأطاع الغزو الفارسي

أو أكد ما سبق لى وأن أشرت إليه في أكثر من موضع من هذا البحث من أن وجود أعراض النظام الاقطاعى وانتعاش الجيوب العشائرية والقبلية في المجتمع اليمنى هو دائماً أمر مشروط ومتلازم جديلاً بانتشار حالة الضعف والأنهيار السياسى والاقتصادى للدول المركزية الوطنية القوية وتفكك الوحدة السياسية ، والعكس بالعكس صحيح تماماً ، وذلك إستناداً إلى

(١) واجع د. فاروق عثمان أباطه : مقال في مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، عدد اكتوبر ١٩٧٨ ص ٨٨ .

مجمال الحقائق الماديه والتاريخية السابق تحليلها بإفاضة فى الفصول السابقة .

ولقد كانت الحركة الزنية هى أولى ردود الفعل القومية والوطنية المبكرة بعد حركة ذونواس فى مواجهة حالة الانهيار والضعف السياسى والاقتصادى وتمزق الوحدة الوطنية بعد سقوط الدولة الحميرية منذ القرن الثالث الميلادى تقريباً ، ووقوع البلاد تحت طائلة الاحتلال الحبشى نتيجة لذلك ، وفشل كل إمارات وممالك الأقبال والأذواء والمثامنة^(١) الاقطاعية والعشائرية التى أفرزتها حالة الضعف تلك فى مواجهة هذا الاحتلال ، بل لقد مال بعض هذه العناصر إلى التعايش معه خصوصاً إذا ما عرفنا بأن ذو يزن لم يكن من هؤلاء المثامنة ولا من الأذواء الكبار ، بل هو من إمرة عادية تسكن منطقة السر ولحج ومرخة وأحور^(٢) .

فإذا مانظرنا إلى الحركة الزنية من خلال هذه الرؤية الاجتماعية والطبقية الواضحة فإننا سوف نقوى بسهولة على قراءة وتفسير هذه الحركة تفسيراً جديلاً صحيحاً . فلقد كان تحاذل هذه الطبقة الاقطاعية الجديدة من الأقبال والأذواء والمثامنة تجاه الحركة الزنية والذى لا نشكك أنه قد حدث قد ارتكز على مجموعة من الحقائق السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، يأتى فى مقدمتها الأثر المعنوى للفشل الذريع الذى لقيته المقاومة المجرىة والمشتتة لهذه العناصر تجاه الغزو منذ البداية ، وما خلفه هذا الفشل فى أذهانهم من أن هذا الغزو هو قوة لا تقهر ، ومال البعض إلى التعايش معه . وثانيهما أنهم ما كانوا ليستطيعوا أو يطبقوا بحكم طبيعتهم إستيعاب شعارات وطموحات هذه

(١) تؤكد معظم الدلالات التاريخية بأن سياسة الدولة الحميرية كانت ترتكز على مجلس أعلامكون من ثمانية أشخاص يشكلون على ما يبدو التمثيل النبائى الأعلى للمناطق المختلفة ، والذين لا يصلح ملك حمير - كما يقول الدكتور يوسف محمد عبد الله - إلاهم ، وإذا اجتمعوا على عزل ملك عزلوه (راجع ص ٥٣ من مجلة اليمن الجديد عدد مارس ١٩٨٠) وقد شكل هؤلاء الثمانية بعد سقوط الدولة نواة الطبقة الاقطاعية والعشائرية الجديدة والذين عرفوا فيما بعد بالمثامنة ، شأنهم شأن غيرهم من الأقبال والأذواء الآخرين ، والذين حاول العديد منهم مقاومة الحملة الحبشية بمجهود مشتتة وفشلوا فى ذلك فشلا ذريعاً .

(٢) راجع دكتور عبد الطيف الحديثى : أهل اليمن فى صدر الاسلام ، ص ٨١ إلى ٨٣ .

الحركة الوطنية في ضرورة شن الحرب ضد الغزاة حتى النصر وإعادة بناء الدولة الوطنية المركزية القوية ، والتي إن لم تكن مثل هذد الشعارات والأهداف تتعارض حقيقة مع مصالحهم ، فإنهم قد لا يكونوا قادرين على إستيعابها أو تصور إمكانية تحقيقها بحكم طبيعتهم ونمط تفكيرهم الاقطاعي والعشائري أيضاً . وثالث هذه الحقائق هي أن الغزو الحبشي قد دأب على رعاية وحماية مصالح هذه الطبقة وعدم الأضرار بها على الأقل ، الأمر الذي جعل غالبية أفرادها وقادتها غير متحمسين كثيراً لهذه الحركة إذا لم يكن بعضهم قد دفع إلى مقاومتها فعلاً .

إن هذه الحقائق التي بالرغم من قلة الأسانيد التاريخية المكتوبة عنها في الكتابات التقليدية إلا أنها راسخة الحجة منطقياً وجدلياً إلى حد كبير ، بل إنها تشكل المقياس العلمي والمنطقي الصحيح الذي يحكم دائماً كل تفكير ومواقف الطبقات الاقطاعية في المجتمعات المختلفة بصفة عامة إزاء المتغيرات القومية والوطنية في كل مجتمع والطبقة الاقطاعية في المجتمع اليمني على وجه الخصوص قديماً وحديثاً على السواء .

ولقد كان لجوء سيف بن ذي يزن إلى حمل هموم شعبه المتوقدة حماساً وثورة ضد الغزاه والخروج بها إلى الخارج هو إجراء سياسي مناسب في مثل تلك الظروف ومركز على مجموعة حقائق أخرى سياسية واجتماعية أيضاً وهي :

أولاً : إكساب الحركة الوطنية ضد الاحتلال الحبشي طابعاً قومياً عربياً ، من خلال طرح هذه القضية على كل القبائل والممالك العربية في شمال الجزيرة وأطرافها ؛ خصوصاً تلك الممالك القوية والمتحضرة لأولئك الذين تربطهم باليمن وأهلها صلة رحم وقربى دموية من الفساسة والمناذرة في الحيرة وتندر ، وطلب العون منهم والتشاور معهم قبل الذهاب إلى فارس ، الذي كان مجرد خطوة سياسية منبثقة عن ذلك التشاور . فذو يزن لم يكن في رحلته ليهدف إلى طلب العون - كما يقول الدكتور فاروق عثمان إياضه - من الروم أو من الفرس ، وإنما أراد من أبناء وطنه المهاجرين

اليمنيين الذين كانوا في ذلك الحين قد كونوا إمارتين عربيتين على حدود الدولتين الكبيرتين ، وكان ارتباطهم بهاتين الدولتين وراء رحلة سيف إلى عاصمتي « بيزنطة » و « فارس »^(١) .

وثاني هذه الأهداف والحقائق هو البحث عن إيجاد ما يمكن تسميته بلغة السياسة المعاصرة بالتوازن الدولي تجاه الأحداث في اليمن ، والذي كان هذا التوازن يبدو مختلفاً إلى حد كبير في غير صالح الحركة البزنطية من خلال الغزو الحبشي الذي تقف وراءه بيزنطة والعالم المسيحي بأسره ، وذلك من خلال استنفار فارس الوثنية والتد التقليدي لبيزنطة المسيحية .

وثالث هذه الحقائق والأهداف أن ذويزن كان يدرك جيداً ما سيكون لإقامة مثل هذا التوازن من أثر معنوي قوى على نفسية اليمنيين في مقاومتهم للغزو ، خصوصاً أفراد تلك الطبقة الاقطاعية والعشائرية من الأذواء والمثامنة الذين ملأ نفوسهم اليأس واستهوتهم المصالح الإقليمية والشخصية الضيقة كما سبقت الإشارة .

ولقد حققت هذه الرحلة كل الأهداف السياسية التي استهدفت منها حينما عاد ذويزن يحمل إلى سواد شعبه روحاً معنوية جديدة في مواجهة الاحتلال ، والتي تمثلت أولاً : في إستثارة كل القبائل والممالك العربية في طول الجزيرة وعرضها ولفت إنتباههم إلى هذا الخطر الذي يهدد الجزيرة وعروبته . وثانياً : في الحصول على الدعم السياسي والمعنوي من فارس التي كانت بدورها حريصة على إنتهاز مثل هذه الفرص لدس أنفها في اليمن ، وتجسد ذلك من خلال مجموعة الستمائة جندي من الأبناء من الفرس الذين أحضرهم سيف معه^(٢) ، والذين كان لوصولهم تأثير معنوي فعال في تحطيم معنويات الأحباش من جهة ورفع معنويات اليمنيين في

(١) د . فاروق هُمان أمين أباطه : التدخل الأجنبي في اليمن في نهاية عهد حضارته القديمة وموقف الشعب اليمني إزاءه ، مقال في مجلة . دراسات الخليج والجزيرة العربية ، عدد أكتوبر ١٩٧٨ ، ص ٨٤ .

(٢) المرجع السابق ص ٨٦ .

خوض المعركة الحاسمة ضد الأحباش أنفسهم من جهة أخرى . ولم يكن جيش تحرير فارسي لليمن من الأحباش كما درج على ذلك معظم الرواة والأخباريين إلى حد إتهام ذوي زن بأنه قد أزال محتل قديم باحضار محتل جديد ، ومما يؤكد فساد مثل هذه الروايات هو ماتطفع به وجهات النظر المختلفة والمتناقضة لهذه الروايات عن هذه الرحلة والتي هي أقرب إلى الأساطير منها إلى الحقائق التاريخية جملة وتفصيلا .

ونحن في هذه المسألة نتفق إلى حد كبير مع ماذهب إليه الدكتور فاروق عثمان أباطه في كتاباته وهو دارس تاريخي معاصر ومتخصص في شئون التاريخ اليمني وفيما أشار إليه في مقال تاريخي قيم حول هذه المسألة بالذات المتعلقة برحلة سيف بن ذي يزن في مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية بعنوان التدخل الأجنبي في اليمن في نهاية عهد حضارته القديمة وموقف الشعب اليمني إزاءه ، حيث يذكر في هذا الشأن ما نصه : إن الكثيرون يقعون في خطأ ، فأحش عندما يتصورون أن الفرس هم الذين قاموا وحدهم بطرد الأحباش من اليمن ، إذ أن المنطق لا يقبل إطلاقاً أن يتمكن عدد محدود من رجال الفرس لا يتجاوز ستمائة مقاتل من القيام بتلك المهمة بأى حال من الأحوال ، وإن من يعتقدون في ذلك يتجاهلون الدور الكبير الذي لعبه رجال القبائل اليمنية الثائرة في طرد الأحباش من بلادهم . . وكل ما يمكن أن تكون قد فعلته تلك القوة الفارسية المحدودة هي أنها أشعرت الأحباش بأن القبائل اليمنية سوف تتلقا دعماً من الامبراطورية الفارسية المنافسة لبيزنطة والمعادية بطبيعة الحال للوجود الحبشي في اليمن . . ومن ناحية أخرى كان هذا الدعم الفارسي من شأنه أن شجع القبائل اليمنية المتحفظة للاشتراك مع القبائل الثائرة التي توقعت أن ترجع كفتها على كفة الأحباش إذا ما حملوا عليهم جميعاً حملة شاملة وهو ما حدث بالفعل^(١) .

والشيء الذي جعل معظم الرواة والمحدثون ينحون مثل تلك المناحي

(١) د . فاروق عثمان أباطه : مقال في مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية عدد

أكتوبر ١٩٧٨ ، ص ٨٦ .

الخاطئة في تقييم علاقة الحركة اليزنية بفارس هو عدم إدراكهم للنوايا الاستعمارية الفارسية غير المباشرة تجاه هذه الحركة وتجاه اليمن بصفة عامة في تلك المرحلة ، والذي ارتكز موقفها في هذا الشأن على نقطتين أساسيتين ، الأولى مباشرة وهي المتمثلة في الاستجابة لتقديم العون السياسي والمعنوي للحركة إنطلاقاً من مصلحة مشتركة لكلا الطرفين ، وهو الأمر المعلن ، أما النقطة الثانية غير المعلنة والتي تخص إيوان كسرى وسياسته الخاصة وحده والتي يغفلها الرواة والمحللون والأخباريون فهي الاستعداد للسيطرة على اليمن والحلول محل الأحباش إذا ما نجحت الحركة في طردهم وإذا ما واثت الفرصة لذلك ولو على المدى البعيد وبالطرق السياسية الأقل تكلفة وإثارة ، وذلك من خلال التواجد المباشر لأقلية الفرس في اليمن الممثلة في مجموعة الجنود الذين حضروا مع سيف بن ذي يزن والذين تحولوا إلى سياسيين بمرور الوقت إن لم يكونوا هم حقيقة عناصر سياسية أصلاً وبالفعل ، عملت منذ البداية لذلك الهدف غير المباشر بطريقة مباشرة وغير مباشرة ، ولم يكونوا مجرد مساجين جانحين محكوم عليهم من أمبراطور فارس كما ترى معظم روايات الأخباريين الأقرب إلى الأساطير .

ولقد واتهم الفرصة الذهبية لتحقيق ذلك الهدف بعد انتصار الحركة وخروج الأحباش من اليمن حينما بداء ذو يزن في العمل على استعادة أسس ومقومات الوحدة الوطنية وبناء الدولة المركزية ودخل بسبب ذلك في صراع مرير وعنيف مع رؤس الطبقة الاقطاعية من الأذواء والمثامنه الذين برزت هذه السياسة باعتبارها تهديداً حقيقياً لمصالحهم المرتبطة باستمرار حالة الضعف والتفرق السياسي والوطني القائم^(١) ، حيث تواطئت بعض هذه العناصر مع الفرس الذين جمعهم مصلحة مشتركة في التخلص من سيف بن ذي يزن والقضى على توجهه القومي والوطني لبينفرد الفرس بالسلطة الشرعية وللتصرف بالسياسة الخارجية والسيطرة على حركة التجارة وممراتها الدولية في البحر الأحمر وهو الهدف الأساسي لفارس ، ويضل ملوك الطوائف من الأذواء الاقطاعيين والعشائريين على ما هم عليه كل واحد منهم شبه مستقل بمنطقة من

(١) أهل اليمن في صدر الاسلام ، ص ٨٤ (مرجع سابق) .

مناطق البلاد يتصرف بها وبأهلها كيف يشاء تحت حماية ورعاية تاج كسرى أنوشيران . وما أشبه اليوم بالبارحة بالنسبة لما كان يحدث في الأمس القريب للملك وإمارات السلاطين والأمراء الاقطاعيين والعملا في جنوب الوطن تحت رعاية وحماية المندوب السامي في عدن والتاج البريطاني فيما وراء البحر . وقد نجحت المؤامرة ضد الحركة اليزنية بعد انتصارها إنطلاقاً من هذه الرؤية الاجتماعية والطبقية الواضحة للأحداث التاريخية ، إلى أن استعادة الحركة تنظيم نفسها من جديد ضد المحتل الجديد بعد ذلك بقيادة عهله بن كعب العنسي ضد الوجود الفارسي على نحو ما سنرى في الفقرات التالية من هذا البحث .

ومن المفارقات العجيبة أن أكبر شخصية ارسقراطية وإقطاعية يمنية اتهمت بالعمالة للفرس والتواطؤ معهم في اغتيال سيف بن ذي يزن بعد انتصاره هو نفس الشخص الذي تواطىء معهم في اغتيال عهله بن كعب العنسي بعد انتصاره أيضاً ، وهو فروة بن مسيك المرادى الذي يبدو أنه كان بسبب ذلك ذا شأن عظيم بالنسبة للفرس وكان يتمتع برعاية خاصة مادية ومعنوية ، ومن ذلك مثلاً أن حين رئيسيين من أحياء مدينة صنعاء قد سمي أحدهما بأسمه « حى فروة » والثاني بأسم والده « حى مسيك » والذين ما يزالن كذلك حتى يومنا هذا .

فتاريخ عناصر الطبقة الإقطاعية والعشائرية في المجتمع اليمني قديماً وحديثاً هو تاريخ ملطخ بالمساوء والخيانات الوطنية والوقوف ضد ارادة الغالبية الساحقة في المجتمع شأنهم في ذلك شأن أية عناصر إقطاعية في أى مجتمع آخر .

الدعوة الإسلامية من الامل إلى اليأس

ومن المتغيرات التاريخية الأكثر فاعلية وحسماً في حياة المجتمع اليمني وتاريخه ، وتاريخ منطقة الشرق بأسرها هي الدعوة الإسلامية التي إستجاب لها اليمنيون بلا قيد أو شرط وآووها ونصروها حتى النهاية ، إنطلاقاً من نفس المبدأ ونفس الظروف التي تعاملوا من خلالها مع اليهودية والمسيحية ، مع بعض الفوارق الجوهرية في طبيعة الدعوة الإسلامية باعتبارها دعوة أخوة ورابطة وطنية وقومية ولم تكن غزوا بالنسبة لليمن

بالذات ، أما من حيث النتائج فهي وإن بدت في بعض الفترات القصيرة إيجابية إلا أنها قد أخفقت في أن تحقق لليمنيين ما كانوا يقصدونه منها وما أستجابوا لها من أجله ، شأنهم شأن غيرهم في العالم العربي والإسلامي حتى اليوم .

ذلك أن إقبال اليمنيين على الاستجابة للدعوة الإسلامية ومناصرتها والدفاع عنها ونشر لوائها في الوقت الذي جحدتها قريش ، وناصبت محمداً وأتباعه العداء والكراهية لم يكن من قبيل المصادفات أو نزعة الطيبة والعاطفة التي جرى الكثيرون على تفسير هذا الموقف من خلالها ، بقدر ما أنه كان يمكن وراء هذا الموقف الفريد لليمنيين من بين كل الذين عرضت عليهم الدعوة بالسلم فرفضوها وحاربوها داخل الجزيرة وخارجها ، أمران أساسيان الأول : أن المضمون الفكري والاجتماعي الأنساني للدعوة وما دعى إليه محمد من القضاء على الوثنيات المتعددة والعادات الخرافية والوحشية السيئة التي كانت سائدة في المجتمع المكّي وما حوله من وأد البنات والمراعاة والانصاف والإزلام وغيرها ، وإيجاد مجتمع مركزي قوى موحد ماديا وروحيا يسوده نوع من المساواة والأخوة والعدل كانت كل هذه المفاهيم تنسجم كلية مع جوهر الأصول العقلانية والوجدانية للمجتمع اليمني ، ولم يجدوا بينهم وبينها أي عائق مادي أو معنوي ، بل وجدوا فيها مفاهيم وأصول اجتماعية لامكانية إقامة مجتمع عربي جديد قوى وموحد ، الأمر الذي أحيا في نفوسهم ما كان قد فقد منهم بالفعل وبعث أمل إمكانية خلقه من جديد لأن أفكار التوحيد - كما يقول الدكتور الحديثي - كانت منتشرة في اليمن منذ مدة قديمة ، لذلك لم تصدم معتقداتهم بالدين الجديد (١) .

أما الأمر الثاني : فهو أن اليمنيين كان قد فرض عليهم من حالة الضعف والتمزق وصراع الأعداء والغزاه من الأحباش والفرس ، الذين كان ما يزال حاكمهم « باذان » الفارسي يحكم يومها في صنعاء ، بعد اغتيال سيف بن ذي يزن الذي وصل بعض الفرس لنصرتة ومعاونته ضد الأحباش فاغتالوه بعد انتصاره وحكموا البلاد حكما أجنبيا لبعض الوقت ، حيث وجد اليمنيون في هذه الدعوة منطلقا وفرصة لا تعوض ، من أجل التغلب على ما يعانونه ،

(١) د نزار عبد اللطيف الحديثي : أهل اليمن في صدر الإسلام ، ص ١٠٠ .

والخروج من ضائقهم السياسية والاجتماعية ، بالتنسيق والوحدة مع إخوانهم وبني جلدتهم عرب الشمال ، في ظل دعوة وأيديولوجية جديدة ، جديرة بتوحيدهم واستعادة مجدهم والتغلب على كل مشاكلهم الداخلية والخارجية^(١). حيث ما كادت أنباء هذه الدعوة تسمع في اليمن حتى لفظت المسيحية آخر أنفاسها ، وذهب اليمنيون تواشعوبا وقبائل لاعتناق هذا المعتقد الديني والسياسي والاجتماعي الجديد ، وجلبه إلى موطنهم ، لاجبا أو خوفا من هذه الدعوة لذاتها واقتناعا بها ، بقدر ما أن العوامل والظروف التي ظلت تكرر نفسها تجاه مد الدعوة اليهودية والمسيحية بالنسبة لليمنيين تعيد نفسها هذه المرة بصورة أكثر قوة وحدة وفي ظل ظروف سياسية واجتماعية ونفسية أكثر مواتاة ، لأن وضع اليمن السياسي والاجتماعي والنفسى كان قد وصل في هذه المرحلة إلى حالة من التمزق والضياع والغربة لم يسبق لها مثيل ، خصوصا بعد اغتيال سيف بن ذى يزن القائد المنقذ من الاحتلال الحبشى الذى عانا منه اليمنيون زمنا طويلا ووجود محتل أجنبي جديد على قمة السلطة السياسية .

حيث وجد اليمنيون - كما سبقت الإشارة - في هذه الدعوة منطلقا وفرصة لاتعوض من أجل التغلب على ما يعانونه من ضياع والخروج من ضائقهم السياسية والاجتماعية والنفسية ، بالتنسيق والوحدة مع أخوانهم وبني جلدتهم في الشمال ، وفي ظل دعوة وأيديولوجية جديدة وجديرة حقا بتوحيدهم واستعادة مجدهم ، والتغلب على كل مشاكلهم الداخلية والخارجية^(٢) . فكان لهم ما أرادوا ولو لفترة محدودة من الزمن لانتجاوز عهد صدر الإسلام ، حيث تغير مجرى الأحداث بعد ذلك مع ظهور الإمبراطورية الأموية ، ليس بالنسبة لليمنيين الذين عاشت الدعوة الإسلامية

(١) راجع محمد بن يحيى الحدا : تاريخ اليمن السياسى الطبعة الثالثة عالم الكتب القاهرة

١٩٧٦ م . ص ٢١

(٢) المرجع السابق ص ١٢١ .

فى حمام وحلت على أكتفاهم وأسنة رماحهم إلى مختلف بقاع الأرض فحسب ، بل وبالنسبة لجوهر الدعوة الإسلامية ومبادئها الأساسية الراديكالية النقية أيضا .

ولقد كانت ثورة اليمنيين بقيادة عهله العنسى هى أول رد فعل سلبى تجاه بعض المتغيرات السلبية لسياسة الخلافة فى المدينة ، التى خيبت بعض آمالهم فى الطموح إلى تأكيد استقلالهم الوطنى من بقايا حكم الاحفاد الفارسيين ، أو حكم « الابناء » كما عرف فى تاريخ الخلافة ، حيث ذهبت سياسة الخلافة فى المدينة إلى تثبيتهم وتوطيد سلطتهم وإعطائها صبغة شرعية جديدة باسم الإسلام وفى ظل مبادئه ، فإذا كانت قد وجهت أول دعوة من الرسول صلى الله عليه وسلم بواسطة المهاجر « أمية المخزومى » بحرص شديد إلى قبل اليمن الحارث بن عبد كلال الحميرى قبل غيره ، فلجى الحارث الدعوة ومعه قوم كثير ، فقد كان أول حاكم يقره الرسول على اليمن بعد أن استكمل إسلامه فى وقت وجيز هو « باذان بن التيجان » نفسه الذى كان يحكم باسم فارس ، وعين من بعده على خلاف صنعاء ابنه شهر بن باذان ، بعد تقسيم اليمن إلى ثلاثة مَخاليف ، والذى قتله فيما بعد عهله بن كعب العنسى الملقب بذو الخمار ، واستولى على صنعاء وحضرموت وغيرها (١) . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن اليمنيين لاحظوا بأن خراج بلادهم كله من الزكوات وغيرها تنقل بالكامل إلى المدينة ولم يبق منه شىء لالفقراء اليمن كما تقضى بذلك مبادئ الإسلام ولا لمنافعها العامة (٢) والذى كان هذا الأمر وما قبله هو من أهم دوافع الإنتفاضة الوطنية لعهله العنسى وغيره من أقبال اليمن الذين ذهبوا طوعا إلى المدينة بحماس للدخول فى الدعوة ومناصرتها من مفهوم ومنطلق سياسى وتاريخى معين ، فعادوا بعد حين ليعارضوها ويعترضوا على تصرفاتها بنفس السرعة ونفس الحماس ، ومنهم معد بن يكرب الزبيدى وأبوموسى الأشعرى فى تهامة ، وقيس بن مكشوح الماردى

(١) تاريخ اليمن السياسى للحداد ص ١٥١ مرجع سابق .

(٢) أنظر تاريخ الطبرى الجزء الثانى ص ٥٣٦ .

في مأرب ، والأشعث بن قيس الكندى في حضرموت وغيرهم كثير^(١) .

ثورة عبله بن كعب العنسى ومعد بن يكرب الزبيدى وقيس بن مكشوح المرادى والأشعث بن قيس الكندى وغيرهم من القيادات اليمنية البارزة لم تكن ردة ولا خروجاً ونقض عهد للرسول وخليفته أبى بكر الصديق ، وعودة إلى الجاهلية والكفر والوثنية وعبادة الأصنام وادعاء النبوة إلى غير ذلك مما درج عليه الرواة المتعصبون بلا فهم عقلى ، والمحدثون عن التاريخ من وجهة نظر معينة وبسذاجة لم تعد تقوى اليوم على الصمود أمام مناهج العلم التاريخية والاجتماعية الحديثة ، فلك الانتفاضه كان سببها وأسماها الواقعى هو سوء تقدير القيادة السياسية في المدينة - لسبب أو لآخر - للخلفيات السياسية والتاريخية والاجتماعية والحضارية التى كانت تكن وراء أستجابة اليمنيين الواسعة النطاق على اختلاف مستوياتهم للدعوة الإسلامية والدخول فيها ، والتي من أهمها طموحهم إلى تأكيد وحدتهم مع أخوانهم فى الشمال والقضاء على كل بقايا النفوذ الاجنبى فى الجنوب ، وصولاً إلى تكوين دولة عربية قوية موحدة فى ظل الدعوة الجديدة ، تعيد ما كانوا قد افقدوه من قوة ومنعه وتضمد ما كان قد استفحل من جراحات الصراع مع الغزاة الأجانب من الأحباش والفرس ، لكنهم فوجئوا بنتائج شبه عكسية تماماً ، كما سبقت الإشارة وكما يؤكد ذلك ما جاء فى رسالة من أبى بكر إلى ذى الكلاع الحميرى ، وهو من القادة اليمنيين الذين كانوا ما يزالون شبه محايدين تجاه أحداث الانتفاضة الوطنية قوله : أعينوا البناء (أى أبناء الفرس وفيروز واحدا منهم) على من ناوهم وحوطوهم وأسمعوا « من فيروز » وجدوا معه فإنى قد وليته^(٢) . وفى كتاب من قيس بن مكشوح المرادى إلى ذو الكلاع نفسه حول نفس الموضوع وبعد أن علم برسالة أبى بكر إليه ورد قوله :

(١) راجع محمد على الأكوع : الوثائق السياسية اليمنية من قبل الإسلام إلى ٣٣٢ هجرية ، دار الحرية للطباعة بغداد ، الطبعة الأولى ١٩٧٦ ، ص ١٠٣ و ١٠٤ و ١٢٤ و ١٤٨ و ١٥٦ و ١٥٧ و ١٥٨ و ١٥٩ . مع ملاحظة أننا نعتد على الأكوع فى الحصول على المعلومات فقط لكننا قد نختلف معه فى كثير من وجهات النظر التحليلية .

(٢) أنظر تاريخ الطبرى الجزء الثانى ص ٢٣٦ .

إن « الأبناء » نزاع في بلادكم وثقلا عليكم وأن تركوهم لن يزالوا عليكم ، وقد أرى من الرأي أن اقتلوا رؤسهم وأخرجوهم من بلادنا^(١) . ومن رسالة لعبلة العنسي لمعاذ بن جبل حول خراج اليمن ونقله إلى المدينة جاء قوله : أيها المتوردون علينا أمسكوا علينا ما أخذتهم من أرضنا ووفروا ما جمعتم فنحن أولى به وأنتم على ما أنتم عليه^(٢) .

ولقد استطاعت تلك الإنتفاضات على الأقل أن تكشف لأبي بكر بعد وقت قصير من توليه والخلفاء من بعده مخاطر سياسة التمسك بتولية الأبناء من الفرس على اليمن ، والتي أعرض عنها فيما بعد وقرب منه بقلب المؤمن الصادق والمخلص لجوهر الدعوة الإسلامية كل قادة اليمن ، بما فيهم قادة الإنتفاضة نفسها ، أمثال عمرو بن معديكرب الزبيدي وقيس بن مكشوح المرادي والأشعث بن قيس الكندي وغيرهم^(٣) .

وامتنص بذلك كل جذور الفتنة تماماً في اليمن ، ولقد ترجم اليمنيون بعد ذلك كل أبعاد حبههم وإخلاصهم للدعوة وطموحاتهم وآمالهم التي علقوها عليها حقيقة تحت قيادة أبي بكر ومن بعده عمر بن الخطاب ، والتي كانت سنوات خلافتها بعد الرسول هي بحق العهد الذهبي ، لبالنسبة لليمنيين فحسب ، بل وبالنسبة للتطبيق الحقيقي لجوهر الدعوة الإسلامية ومثلها وأخلاقياتها النقية على النطاق السيامي والاجتماعي والديني ، الذي كان يطمح إليه اليمنيون وغيرهم ، وحتى عودة الارستقراطية والاقطاعية الأموية إلى السلطة في عهد عثمان وبشكل نهائي في عهد معاوية ، الذي يمكن اعتباره عهد مفترق الطرق بلا رجعة هذه المرة .

-
- (١) أنظر د . جواد علي : المفصل في تاريخ العرب الجزء السابع ص ١٩٣ .
 (٢) أنظر تاريخ الطبري الجزء الثالث ص ٢٢٩ ، وتاريخ الخداد ص ١٥٠ إلى ١٥٥ . وانظر في ذلك أيضاً الوثائق السياسية اليمنية للأكوع ص ١٤٨ .
 (٣) أنظر في الموضوع ككل تاريخ اليمن السياسي للحداد ص ١٥٠ إلى ١٥٥ (مرجع سابق) مع ملاحظة أن عبلة العنسي هو الوحيد تقريباً من قادة الانتفاضة الكبار الذي لم يعد إلى المدينة ، لأنه كان قد قضى نحبه في أواخر عهد الرسول وذلك عندما قتله الأبناء من الفرس غيلة وبعثوا برأسه إلى الرسول في وفد كبير منهم يصل إلى ثلاثمائة شخص ، ولكن الرسول توفى قبل وصولهم ، وكان قد علم بمقدمهم قبل موته فأوصى بهم أصحابه وبمن في اليمن منهم خيراً .
 راجع الوثائق السياسية اليمنية للأكوع ، ص ١٣٣ و ١٣٤ .

أهل اليمن في صدر الإسلام

هذه العبارة هي عنوان أحدث دراسة تاريخية جادة عن أهل اليمن في صدر الإسلام للدكتور نزار عبد القطيف الحديثي ، وهذه الدراسة الجادة والمركزة ربما تكون - في تقديرنا على الأقل - هي أفضل دراسة حديثة ومعاصرة يمكن الاعتماد عليها والأنطلاق منها إلى تحقيق رؤية إجماعية صحيحة ومتكاملة عن أهل اليمن في تلك الفترة ، وعن المجتمع اليمني بصفة عامة ، وذلك نظراً لما بذله الباحث من جهد كبير في الكشف عن الوقائع والأحداث والمعلومات الدقيقة من مصادرهما المباشرة والمشتتة عن هذه القضية في عشرات الكتب والمجلدات والموسوعات الكبيرة من جهة ، ولما تحلأ به الباحث من حسن العرض العلمي المركز في صفحات قليلة بلا حشو ولا أطناب من جهة ثانية ، وما يتمتع به الباحث من موقف علمي محايد ومعالجة منهجية معاصرة .

لكل ذلك فقد رغبتنا في استيفاء الحديث عن المجتمع اليمني في تلك الفترة إضافة إلى ما سبق ، من خلال فتح حوار نقدي مع ما جاء في هذا البحث القيم والتعليق عليه سلباً وإيجاباً من جهة ، واستيفاء لكل الجوانب التي نحرص على إستيفائها عن هذه الفترة الحاسمة في تاريخ المجتمع اليمني من جهة أخرى وتحت نفس العنوان .

فإذا ما تجاوزنا الفصل الأول الذي يركز فيه على الوصف الجغرافي لليمن إلى الفصل الثاني والثالث الذي يتعرض فيهما للأوضاع الاجتماعية والسياسية في اليمن عند ظهور الإسلام ، وهو ما يهمننا أكثر في هذه الدراسة ، لوجدنا أن الباحث قد وفق إلى حد كبير في تشخيص تلك الأحوال ، والتي تتلخص في إنتشار إمارات وممالك الأقبال والأذواء والمثامنة الأقطاعيين ، والذين أطلق عليهم الطبري والهمداني إسم « ملوك الطوائف »^(١) . والمشتتة هنا وهناك وذات المضمون الاقتصادي والاجتماعي المركب من الأقطاع والقبلية ، والتي قامت على انقراض سلطات الدول المركزية القوية القديمة ، حيث يذكر

(١) راجع كتاب الاكليل لهمداني الجزء الثاني ، ص ٢٩٤ و ٢٩٥ .

الدكتور الحديثي في هذا الشأن قوله : وقد أدى سقوط الدولة الحميرية في القرن الخامس الميلادي إلى فقدان اليمن لسلطة سياسية عليا وطنيه توحدهم وتلم شملهم ، فأخذت عوامل كثيرة تعمل على تفكيك وحدتهم وإضعاف آثار النظم الموحدة التي وضعها الحميريون وإلى إظهار صيغ إجماعية جديدة « قبلية على الأغلب »^(١). وهو الأمر الذي أدى بعد ذلك إلى إخفاق هذه الممالك والأمارات الإقطاعية والقبلية في مواجهة الغزو الحبشي ، بل إن تواطىء بعض الأسر الحميرية - كما يقول الدكتور الحديثي أيضا - مع الاحتلال محتمل ومتوقع ، لأن غياب السلطات المركزية أفاد اولائك الذين كانوا يتطلعون إلى النفوذ ولم يكونوا قادرين على تحقيقه ، خاصة وأن طبقة الأذواء وهي واحدة من أركان النظام الحميري القديم قد بدأت تتحول إلى طبقة إقطاعيين منذ القرن الثاني قبل الميلاد^(٢) .

ولقد كانت المعارضة الوطنية التي واجهها الحكم الحبشي هي معارضة ذى يزن وهي - كما يقول الدكتور الحديثي أيضا - أسرة حميرية عادية تسكن السرو ولحج ومرخه واحور وليست من الأذواء الكبار ، بل يبدو أن الأذواء قد خذلوا حركة ذى يزن وتواطىء بعضهم مع الفرس ضده بعد انتصاره^(٣) .

(١) د. عبد اللطيف الحديثي : أهل اليمن في صدر الاسلام ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ، ص ٦٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٨٩ و ٨٢ ، وانظر في ذلك أيضاً سيرة ابن هشام ج / ٢٢٨ - ٢٣٥ . (نقلا عن المرجع السابق) .

(٣) نحن لانميل مطلقاً إلى الأخذ بفكرة أن بعض من بقايا الأقباش المستخمين لدى سيف هم الذين نفعلوا جريمة الاغتيال ثاراً منهم لأسقاطه ملك آبائهم في اليمن وطردهم منها ، لأن مثل هذا التلطيح يخلو من كل الدلالات السياسية التي تدعاه ، لأن المستفيد الحقيقي الأول من اغتيال سيف هم الفرس الذين كانوا يطعنون إلى حكم اليمن والاستيلاء على ثرواتها وممراتها التجارية من جهة يساعدهم في ذلك بعض أمراء الممالك الإقطاعية المحليين الذين كان سيف قد بدأ في تقييض مصالحهم بمنف وصولاً لاستعادة الدولة الوطنية المركزية القوية المفقودة والذين من بينهم فروة بن مسيك المرادي ، الذي كانت له كما يبدو علاقة وطيدة مع الفرس في صنعاء ومن المقربين إليهم يؤكد ذلك وجود حين رئيسيين من أحياء المدينة أحدهما باسمه « فروة » والآخر باسم والده « مسيك » حتى يومنا هذا ، وإذا كانوا قد وجلا أضعفاء النفوس لتنفيذ الحلقة الأخيرة من المؤامرة من بقايا المستخمين الأقباش فذلك يجب أن لا يخفى وجه الحقيقة ، لأن مثل هذه الأمور ما تزال لها أمثلة كثيرة في تاريخ المجتمع اليمني .

وهو الأمر الذى أدى به فى البدايه إلى البحث عن مصادر عون خارجيه .
وهو الأمر الذى تكرر بنفس الصورة تقريباً بعد حين بالنسبة للحركة
الوطنيه بقيادة عهله بن كعب العنيس ضد الحكم الفارسى فى
صنعاء بعد مقتل سيف بن ذى يزن ، حيث انقسمت هذه الإمارات والممالك
الاقطاعية فى موقفها من الحركة ، فأيدتها خولان ومد حج التى منها عهله
نفسه ، ووقفت منها حمير فى البدايه على الحياد ، لأنها كانت ترى أنها أولى
بقيادة أى حركة لاستعادة السلطة والأستيلاء عليها ، لأنها أصل الملك ومنها
ذو يرن الذى كان على وفاق ودى مع فارس ، خصوصاً وأن اكدوبة
الحاق حادثه اغتيال ذى يزن ببعض المستخدمين من الأحباش وليس
الفرس وهم القتل الحقيقين يبدوان هذه الأشاعة قد انطلقت على حمير بعض
الشيء الأمر الذى أداء إلى تقليل حماسها للمشاركة فى تلك الحركة فى البدايه
وإن كانت لم تقاومها أو تتحالف ضدها بل لقد إشتراك فيها فى النهاية ،
على نحو ما سنرى بعد قليل .

هذا فى الوقت الذى مالت همدان الكبرى (تحالف حاشدو بكيل) إلى
التحالف مع الفرس ضد الحركة منذ خطواتها الأولى ، حيث عقدوا حلفهم
المشهور مع باذان قبل وصول الدعوة الإسلامية إلى اليمن بقليل والحركة
ما تزال فى بدايتها فى منطقة مذاب من الجوف ، والذى وقعه عمرو بن
الحارث بن الحصين الشاكرى رئيس بكيل ، وعمرو بن يزيد بن الربيع
الحاشدى ، واتفقوا على عقد حلف ضد القبائل المتجمعة فى مذاب من بلاد
الجوف، والتي كانت ما تزال تحاول شد اطراف اخرى إلى جانبها . وقد جاء
فى نص هذا الحلف المشنوم : « هذا كتاب ما اجمعت عليه همدان وفارس
باليمن ، بمحضر المرزبان باذان بن ساسان ومشاهدة الرئيسين عمرو بن
الحارث وعمرو بن يزيد من بكيل وحاشد ، ورضى من حضر وكفاله
بعضهم لبعض عن غاب من الحيين جميعاً أنا تحالفنا جميعاً على عهد الله

وميثاقه واجتماع الهدى واتفاقه و قتال المخالف ورفاقه . . . الخ (١) .

وهكذا تتأكد حقيقة ما سبق لنا الأخذ به والتأكيد عليه تفصيلاً في ثنائياً هذا البحث وفي بحث آخر لناسق نشره عن التراث الشعبي اليمني وعلاقته بالتنمية (٢) من أن التنظيمات القطاعية والقبلية في المجتمع اليمني القديم والجديد هي دائماً الأفراز الجدلى المشوه لحالات الضعف وانهار الدول الوطنية المركزية القوية ، وأن مجمل الظروف الاقتصادية والاجتماعية والجغرافية والاستراتيجية لليمن عبر التاريخ لا تسمح بوجود أنظمة عبودية أو اقطاعية أو قبلية متلازمة ووجود وحدة وطنيه وازدهار حضارى متقدم من أى نوع ، ولا حتى وجود دولة مركزية قوية على النمط القطاعى الذى قد ينجح فى إقامة دول وانبرا طوريات مركزية قوية فى اماكن أخرى تتميز بشروط تاريخية وجغرافية واقتصادية مختلفة ، على نحو ما سبقت الإشارة فى أكثر من مكان بالنسبة لوادى النيل ودجلة والفرات والهند وغيرها ، ناهيك عن المفهوم القبلى الذى يتنافا وجوده جدليا وتاريخيا مع كل شكل من اشكال الوحدة الوطنية ومع ابسط مفاهيم وجود الدولة مهما كانت طبيعتها ومضمونها عبر التاريخ وفى كل زمان ومكان تقريباً .

وذلك هو لأمر الذى لم يتنبه إليه الدكتور الحديثي وغيره من المؤرخين والرواه بالنسبة لليمن خاصة وغير اليمن عامة بسبب افتقارهم للرؤية الاجتماعية فى قراءة التاريخ وكتابته ، بل لقد ذهب الحديثي فى معظم تحليلاته وكما لو كانت النزعة القبلية البحثية هي كل شئ بالنسبة للمجتمع اليمني وما حاول أن يتوصل إليه من حقائق سياسية وتاريخية مختلفة ، خصوصا فيما يتعلق

(١) أهل اليمن فى صدر الاسلام ، ص ٩٠ . وأنظر فى ذلك أيضاً الوثائق السياسية فى تاريخ اليمن للاكوع ، مع ملاحظة أن صيغة بعض الألفاظ هي إسلامية لاحقة اجتهدها فيها الرواة وهذا لاينفى حقيقة مضمون الخلف السابق على الاسلام والمتواترة حقيقة وما يهدف إليه باجماع المؤرخين .

(٢) راجع كتابنا التراث الشعبى وعلاقته بالتنمية فى البلاد النامية ، دراسة تطبيقية من المجتمع اليمنى ، مركز الدراسات اليمنية صنعاء ، ١٩٨٠ ص ١٨٩ إلى ١٩٥ .
(٩م - المدخل الاجتماعى)

بمرحلة ما بعد الإسلام واثناء حروب الفتح والتحرير التي تمت على اكتاف اليمنيين واسنهم رماحهم ، وذلك على نحو ما سنرى بعد قليل .

فإذا كان الدكتور الحديثي قد وفق في الإشارة إلى الكثير من المسائل التي نشاركه الرأي فيها على نحو ما سبقت إليه الإشارة ، إلا أن التوفيق لم يحالفه كثيراً في معالجته لكيفية إسلام أهل اليمن وتطور علاقتهم السياسية بنواة الدولة الإسلامية الجديدة في المدينة بعد ذلك ، خصوصاً فيما يتعلق بماسمى بحروب الردة في اليمن ، فهو يذكر بحق بأن حالة التفكك السياسي والاجتماعي في اليمن قبيل الإسلام قد انعكست في شكل توجه وفود أهل اليمن إلى المدينة ، حيث لم يظهر على الوفود أنها تمثل وحدات قبلية كبيرة متحدة ، أو حتى قبائل كبيرة باستثناء حمير إلى حد ما (١) . غير أن هذا التعدد في رأينا لم يكن تعبيراً عن اوضاع وجماعات قبلية تاريخية أصيلة تنقصها الوحدة في ذلك الموقف كما يذهب إلى ذلك الدكتور الحديثي بصورة غير مباشرة على الأقل ، بقدر ما أنه كان تعبيراً مباشراً عن شتات وتمزق سياسي واجتماعي استفحلت جذوره بفعل غزو أجنبي مسيطر من جهة ، وانتشار الممالك والأمارات القطاعية والأقليمية شبه المستقلة للأقبال والأذواء ، التي فشلت في مواجهة الاحتلال الأجنبي للفرس ، بل لقد مال بعضها إلى التواطؤ معه كما رأينا قبل قليل ، والذين تنتعش وتزدهر مصالحهم الفردية في مثل هذه الظروف التي تنعدم أو تضعف فيها السلطة الوطنية المركزية للدولة دائماً وحتى اليوم (٢) .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن الدكتور الحديثي قد عالج التطورات والأحداث اللاحقة فيما بعد من خلال تعبيره المهذب « تطور علاقة الإسلام باليمن » الذي جعله عنواناً للفصل الثاني من الباب الثاني من الكتاب ، كما استخدم عبارة « المعارضة » بدلاً من « الكفرة والمرتدين »

(١) أهل اليمن في صدر الإسلام ، ص ١٠٧ .

(٢) راجع كتابنا التراث الشعبي وعلاقته بالتنمية في البلاد النامية ، دراسة تطبيقية عن

المجتمع اليمني ، مركز الدراسات اليمنية ١٩٨٠ ، ص ١٨٩ إلى ١٩٥ .

التي دأب كل المؤرخين والمحدثين بتعصب في وصفهم لتلك التطورات ، وشكل بذلك أول سابقة حسنة تقريباً تختلف عما سبق ، إلا ان الدكتور الحديثي وإن كان قد ضمن تحليله الكثير من الاشارات إلى بعض الحقائق بنوع من الاستحيا والحذر عن تلك الأحداث إلا أن الغموض والتناقض قد طغى على الجانب الأكبر من عرضه وتحليله لسبب أو لآخر إن لم يكن قد مال إلى تأكيد كل الآراء والأفكار التقليدية عن تلك الأحداث بطريقه أكثر تهذيباً وبصورة غير مباشرة على الأقل .

فهو يقول مثلاً وبتعبيره المذهب : بأن دوافع « المعارضة » غير واضحة ، ولو أنه بالامكان القول بأن سياسة الرسول لم تكن لتنسجم مع كثير من الأوضاع السائدة في اليمن والتي ترتبط بها مصالح أناس متعددين . ويعزو أسباب المعارضة إلى احتمالين هما : ثقل الجباية الاقتصادية ونزعة الاستقلال (يقصد إستقلال الأذواء عن الدولة المركزية) التي تحكمت لفترة طويلة بأهل اليمن ، وأن سياسة الرسول قد واجهت كلا الاحتمالين معاً^(١) . وبالرغم من أن الدكتور الحديثي قد التمس بعض المبررات غير الموضوعية التي تسقط حق « المعارضة » وتدعم وجهة النظر السياسي للدولة الجديده في المدينة بقوله : إن الرسول كان قد أوصى باعفاء الطبقات الفقيرة من الضرائب وأن الأذواء قد عارضوا الاجرات الإدارية لأنها كانت تهدف إلى إقامة سلطة مركزية تحد من مصالحهم الإقليمية .

إلا أن هذا التبرير إذا لم يكن خالي من الصحة والدليل فهو غير مقنع بالنسبة لنا على الأقل ، لأن المعارضة كانت تنطلق في موقفها من منطلقين رئيسيين الأول إقتصادي والثاني سيامي ويختلفان تماماً في مضمونها عما ذهب إليه الدكتور الحديثي ، لأن المعارضة لم يكن دافعها مقاومة النظام الضريبي الجديد الذي يتجاوز حدود طاقتهم ، بقدر ما أنه كان يتلخص في اعتراضها على نقل كل خراج اليمن وحاصلاتها الكثيرة إلى المدينة ولم يبق منه

(١) د . الحديثي : أهل اليمن في صدر الاسلام ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر

شئء للأنفاق على المصالح العامة للمجتمع وفئاته الفقيرة وفق ما تقضى به التعاليم الإسلامية ، وهذا هو دافع المعارضة الأول ، ذلك أن النظام الضريبي الذى صدره الرسول فى عدة خطابات إلى أهل اليمن وولاتها فيما يتعلق بعشور الارض وزكوات الماشية . . . الخ لم يكن فيها أى جديد تقريباً بالنسبة لليمن لأنها كانت على ما يبدو موجودة من قبل كانظمه ماله وضريبة قديمة على الأرجح ، بدليل أنه لم تصدر عن الرسول أية تعاليم مماثلة فى هذا الشأن إلى غير أهل اليمن^(١) . ولأن نظام عشور الأرض العائدة للدولة وما شابه ذلك هو نظام يمنى قديم بكل تأكيد^(٢) .

وبذلك لا ينتفى ما ذهب إليه الدكتور الحديثى من أن احد اسباب المعارضة الرئيسية هو فرض نظام ضريبي جديد ومرهق على أهل اليمن ، بل ويمكن القول بأن اليمن هى المصدر التاريخى الحق للنظام المالى والضريبي فى الاسلام خصوصا وأنها قد ظلت حتى بعد وصول الاسلام إلى مختلف الأمصار تتمتع بنظام مالى وضريبي خاص وهو نظام الأراضى العشرية التى يؤخذ عشر حاصلاتها ولا تنتزع ملكيتها القانونيه من أهلها ، ولم تكن فى أى وقت اراضى خراجية يؤخذ منها خمس حاصلاتها وتنتزع ملكيتها القانونيه من أهلها وتصبح ملكيتها شرعية بمعنى مجرد تكليف أهلها بزراعتها كما حدث فى معظم الامصار الاخرى .

أما السبب الثانى الذى بنا عليه الدكتور الحديثى تفسير موقف المعارضة وهو سبب سياسى ، ويلخصه فى معارضة الأذواء لسياسة الدولة الجديدة فى المدينة والراميه إلى إيجاد دولة مركزية موحده فى اليمن والجزيرة العربية بصفة عامة ، وذلك نظراً لما ستلحقه مثل هذه السياسة من اضرار بمصالح هؤلاء الأذواء الاقطاعيين ، فإننا نتفق مع الدكتور الحديثى فى ذلك فرضا ، لأن مثل هذا الأمر محتمل ووارد جدليا ومنطقيا ، على أساسى ان نتأكد

(١) راجع محمد الأكوخ : للوثائق السياسية اليمنية من قبل الاسلام إلى سنة ٨٣٢٢ دار الحرية للطباعة بغداد ، ١٠٧٦ ص ٩٥ إلى ١٠٣ .

(٢) راجع تاريخ اليمن السياسى للحداد ، ص ١٢٢ إلى ١٣٢ .

أولا ونقدم الأدلة القاطعة بأن سياسة نواه الدولة العربية الجديدة في المدينة قد نهجت فعلا هذا النهج الوطني والقومي الصحيح ، وهو الأمر الذي قد لا تسعفنا الوقائع على إثباته ، إن لم يكن النهج المعاكس هو الأقدر على تأكيد نفسه ، خصوصا إذا ما تذكرنا بأن أول خطاب يصدر عن الرسول لأهل اليمن للدخول في الإسلام كان قد توجه إلى ذى الكلاع الحميري الذي إستجاب ومعه كثيرون غيره كما نعرف ، وكان أول قرار سياسى يصدر في المدينة فيما يتعلق بالسلطة في اليمن هو إقرار باذان بن ساسان حاكما عليها ، وهو يحتل اجنبي اللحم والدم واللسان ، والذي كان وجوده ومن معه من الفرس كحاكم بأسم فارس في اليمن هو أعظم تحد سياسى ووطنى ظل اليمنيون يقاومونه من خلال نفس الحركة الوطنية بقياده عبلة منذ ما قبل وصول الدعوة إلى اليمن ، وماذاهبهم إلى المدينة طوعية في جماعات وافرادا معلنين إسلامهم وتأييدهم للدعوة الجديدة باعتبارها دعوة أخوة عربية وقومية الابحاث عن منطلق جديد لدعم موقفهم إذا هذا التحدى ، فكان إقرار باذان حاكما عليهم بعد عودتهم إلى بلادهم هو أعظم تحد تاريخى لمشاعرهم ومشاعر اليمنيين جميعا في تلك المرحلة، ويكنى وحده جدا كسبب قوى لشرعية المعارضه ضد سياسة المدينة وتصعيد الحركة إلى ثورة وطنية شاملة ضد الاحتلال بالفعل، والذي إذا كانت اللعبة السياسية لفادته من الفرس قد انطلت على سياسة المدينة باعلان تقمصهم للدين الإسلامى كتصرف إنتهازى وصولا إلى إجهاض الثورة ضدهم والاستمرار فى التسلط باسم الدين فإن هذه اللعبة لم تنطلى على أهل اليمن الذين نظروا إلى الدعوة كوسيلة جديده للتخلص من الاحتلال، لا كمبرر لاستمراره تحت أى إدعى دينى ، لأن اليمنيين كانوا يتعاملوا مع الدعوة بعقولهم وفى ضوء مصالحهم الوطنيه العليا لا بالعواطف والمثاليات العقائدية المجردة والبعيدة عن حقائق الواقع التى ربما تكون سياسة المدينة قد وقعت فيها بكل تأكيد حينما أقرت باذان حاكما على اليمن لمجرد أنه قد أعلن إسلامه ، لاحبا فى الإسلام بل دفاعا عن نفسه ومصالحه كغازى أجنبى فى مواجهة ثورة وطنية شاملة ، إلى غير ذلك من الأجرآت الإدارية التى من هذا القبيل أو ما يشبهه .

ومن ذلك مثلاً تعيين وائل بن حجر على كندة بحضر موت وهو الذى ينتمى لأحدى البطون الصغيرة من حمير المقيمة فى حضر موت بدلاً من الأشعث بن قيس الكندى زعيم كندة الحقيقى ، فإذا قبلنا بذلك كأتجاه لأضعاف الزعامات القبلية والأقطاعية المحلية فى سبيل إقامة الدولة المركزية ، كما أفترض الدكتور الحديثى ، فإن ما حدث من تعيين فروه بن مسيك المرادى على منطقة مدحج وهو شخصية ارستقراطية كبيرة ومكروهة فى مدحج وغيرها ، بل ومتهم بالخيانة الوطنية بعمالته لحكام فارس فى صنعاء والعيش فى كنفهم وتواطئه فى جريمة إغتيال سيف بن ذى يزن ليمكن للفرس من الاستيلاء على السلطة كما سبقت الإشارة ، هو أمر لا يمت إلى مثل هذا الاتجاه بصفة ، شأنه شأن إقرار باذان حاكماً عاماً على اليمن ، بينما كان الزعيم الوطنى الحق لمدحج والذى جاء فى طليعة الوفود إلى المدينة هو قيس بن مكشوح المرادى ، والذى قام بطرد فروه بن مسيك والأنضمام بمدحج كلها لحركة المعارضة بقيادة عهيلة بن كعب العنسى ، كما فعل الأشعث بن قيس الكندى نفس الشيء بوائل بن حجر الحميرى فى حضر موت .

والقضية الأخرى الأكثر أهمية هو ما يتعلق بمرحلة ما بعد تطور المعارضة إلى حركة وطنية شاملة لكل الأسباب السابق ذكرها ، وتمكن عهيلة العنسى من دخول صنعاء وقتل شهر بن باذان الفارسى والبدء بطرد الأبناء من الفرس . (١) وانسحاب معاذ بن جبل من الجند إلى حضر موت ثم العودة إلى المدينة ، وتغلب الحركة بإجماع المؤرخين على ما بين صهيد (مفازة حضر موت) - كما يقول الطبرى - إلى عمل الطائف إلى البحرين ، وثبت ملكه (أى عهيلة) واستغلف أمره ودانت له سواحل من السواحل حاز عثر والشرجة والحردة وغلافه وعدن والجند ثم صنعاء إلى عمل الطائف إلى الأحسيه وعليب . (٢) إلا أن الدكتور الحديثى يعقب على هذه

(١) يقال أن أصل تسمية الفرس بالأبناء فى اليمن يرجع إلى عهد سيف بن ذى يزن ، لأنهم حيناً أتوا معه بعد عودته من فارس كان اليمنيون يسألون من هؤلاء فيقول إنهم أبناءى ، فمروا بسبب ذلك بالأبناء فيما بعد .

(٢) راجع تاريخ الطبرى ، الجزء الثانى ص ٢٣٠ .

الرواية التي تشير إلى الشمول غير العادي لهذه الحركة وإنتصارها السريع بقوله : ويصعب تصديق هذه الروايات لعدم وجود ما يوضح « موقف سكان هذه المناطق من سيطرة عهلة » كما أنه ليس من السهل رفضها لأنه لم يصل لنا ما يناقضها . (١) كما يذكر في الصفحة التالية مباشرة قوله : ويظهر أن الرسول صلى الله عليه وسلم راسل في هذه الفترة أشخاصاً من أهل اليمن غير الذين كان قد راسلهم وأتصل بهم من قبل والذين « نجعل مصيرهم » ويضيف قوله بأن آخر من ارسله الرسول وهو « وبر بن يحسن » لم يذهب إلى حير ولا إلى أولئك الذين راسلهم الرسول ، إنما ذهب إلى الأبناء يبلغهم بطب الرسول بضرورة الثبات على دينهم والنهوض في الحرب والعمل في الأسود العنسي إما غيلة وإما مصادمة ، علماً بأنهم كانوا من حاشية عهلة ولم ترد إشارة إلى إسلامهم من قبل . (٢)

لكن ما الذي يمكن إستخلاصه من هذه الوقائع وما جاء في تقدير الدكتور الحديثي ؟ إن أهم ما يمكن إستخلاصه بوضوح هو أولاً أن الدكتور الحديثي لا يعترض على الرواية المتواترة عن شمول الحركة وغلبيتها ، إلا أن ما يهمه وما لم يستطع التأكد منه هو موقف السكان الأصليين من هذه الحركة ، وهي إشارة بالغة الأهمية والدلالة في تقديرنا ، ولو أن الدكتور الحديثي قد تسلم في بحثه بمنهج ورؤية إجتماعية نافذه لما شك أو حاول أن يشك في موقف السكان والأهالي من تأييدهم للحركة ، لأنه لا يعقل أبداً أن تستطيع حركة سياسية مهما كانت طبيعتها أن تنتشر بهذه السرعة وتحقق هذا الانتصار الحاسم دون أن تكون معتمدة على تأييد وعطف شعبي واسع ، خصوصاً إذا ما تذكرنا تلك الأسباب السياسية والاقتصادية والإدارية القوية ذات الطابع الوطني والقومي الشامل ، التي أعتمدت عليها الحركة أو المعارضة على الأصح كما يسميها الدكتور الحديثي (٣) .

(١) د . عبد اللطيف الحديثي : أهل اليمن في صدر الإسلام ، ص ١١٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١١٧ .

(٣) إن تسمية الحديثي للحركة بالمعارضة بالنسبة لسياسة المدينة هي أفضل تسمية يمكن الأخذ بها ، إلا أنها بالنسبة للفرس تعتبر ثورة وطنية وليست مجرد معارضة ، فهي معارضة بالنسبة للاولى وثورة حقيقة بالنسبة للثانية .

أما الشيء الثانى الذى تجدر الإشارة إليه وتأكيداً لما سبق فهو مايقوله الحديثى من أن الرسول قد راسل فى هذه المرحلة أناسا غير أولائك الذين كان قد راسلهم من قبل والذين يجهل الحديثى مصيرهم كما يقول هو نفسه ، ودون أن يذكر أسماءهم ، والذين يقصد بهم كل أولئك الأقبال والأذواء والشخصيات اليمنية الكبيرة بدءا بذى الكلاع الحميرى والأشعث بن قيس الكندى ، مرورا بوائل بن حجر الحميرى ومعد بن يكر بن الزبيدى وأبوموسى الأشعرى ، وانتهاء بفروة بن مسيك المرادى وقيس بن مكشوع المرادى وغيرهم كثير ممن ذهبوا إلى المدينة من قبل على رأس وفود مناطقهم تلبية للدعوة وأملا فى توطيد روابط الأخوة العربية ، بما فيهم عبهلة بن كعب العنسى الذى حسن إسلامه وإن كان لم يذهب إلى المدينة ، فهؤلاء جميعا لم يكونوا مجهولى المصير فى تلك المرحلة كما يقول الحديثى الذى ربما يكون قد قسى على نفسه هو بهذه العبارة أكثر مما قسى بها عليهم، كما أن الرسول لم يتوقف عن مراسلتهم إبان الحركة. وبعد إنتصارها لأنهم ربما قد غلبوا على أمرهم من قبل عبهلة بعد أن حاولوا مقاومته بلا جدوى كما يقول الحديثى ، ولكن الصحيح والثابت أن غالبيتهم الساحقة كانوا ضمن الحركة نفسها ، رغم تردد ذو الكلاع وهو على رأس حمير ووقوفه على الحياد لبعض الوقت ثم إقتنع بالمشاركة فيما بعد ، بدليل توقف الرسول عن مكاتبته والإقتصار على مكاتبة الأبناء .

حتى همدان (تحالف حاشد وبكيل) التى نجح باذان منذ وقت مبكر وقبل وصول تبشير الدعوة الإسلامية إلى اليمن فى إقناعهم بالتحالف معه ضد الحركة الوطنية بقيادة عبهلة العنسى منذ بواورها الأولى وهى تجمع أنصارها الأوائل فى منطقة مذاب من بلاد الجوف ، فهمدان هذه إختفاء دورها تماماً بعد مقتل باذان إما لأنها قد غلبت على أمرها أمام زحف الحركة الوطنية نتيجة تواطئهم مع المحتلين الأجانب ، أو أنهم قد نقضوا ذلك الحلف المشنوم وتخلوا عن الأبناء حينما أدركوا حتمية إنتصار الثورة ضدهم ، رغم ما يبدو من

لإستمرار عواطفهم نحوهم لسبب أو لآخر ، الأمر الذى يبدو أنه قد إنعكس على إستمرار عواطف الرسول وسياسة المدينة بصفة عامة على همدان هذه بالذات ، وإرسال على بن أبى طالب إليهم وإظهارهم فيما بعد ، وكما لو كانوا هم الفئة الوحيدة التى حسن إسلامها فى اليمن ، لالشيء إلا لأنهم إذا لم يكونوا قد قاوموا الثورة ودافعوا عن الأبناء فلنهم لم يشاركوا فى صنعها وظلوا على حسن نية يتولون رعاية وإيواء من تبقى من الأبناء فى حماهم على ما يبدو .

وإذا كان من الثابت بأن الخليفة أبو بكر بعد وفاة الرسول وإغتيال عهله الذى يرى الأكوع بأن كلا الحادثتين قد وقعت فى يوم واحد قد سير جيشا إلى حضر موت وآخر إلى تهامة وثالث إلى صنعاء فى محاولة سياسية وعسكرية لنصرة الأبناء وإستعادة الأوضاع إلى نصابها وأطلق الرواة والمحدثون لعواطفهم وخيالهم العنان دون عقولهم فى المبالغة فى وصف إنتصارات هذه الجيوش على المرتدين والكفرة ، إلا أن الرؤية الإجتماعية والتاريخية الصحيحة تؤكد غير ذلك ، وأن الجانب العسكرى فى سياسية أبى بكر تجاه اليمن قد أخفق تماماً إذا لم يكن غير موجود أصلاً وهو الراجح ، لأنه لم ترد وقائع تاريخية حقيقية عن معارك عسكرية إستسلمت بموجبها حرباً كل تلك المناطق الشاسعة التى غطتها الحركة إذا ما إستثنينا واقعة الأشعث بن قيس فى حضر موت الذى أستسلم بعد حصار قصير وبناء على تفاوض سياسى مسبق إحتفظ له ولكنة بأكملها بكل إعتباراتهم السياسية والإقتصادية ، كما أن تلك الجيوش التى كان معظم أفرادها أناس عاديين من أهل اليمن أنفسهم كانت أشبه ماتكون بإرساليات سياسية أكثر منها جيوشاً حربية ، لأسباب كثيرة يأتى فى مقدمتها أن دولة المدينة لم تكن قد وصلت إلى الوضع الذى يسمح لها بتجهيز جيوش تقوى على إخضاع هذه المناطق الشاسعة من اليمن قسراً وبهذه السرعة ، ولو إفترض جدلاً أن ذلك قد حدث بالفعل لكانت أقل النتائج المنطقية لذلك هو أن تحتفى كل رؤوس الحركة وقادتها السابق ذكرهم إما قتلاً أو نفياً إلى الأبد ، بدلا من تحويلهم جميعاً إلى ما يشبه مجلس إستشارى فى السياسية وقيادة فى الحرب بالنسبة لأبى بكر ومن بعده عمر ، ولو أن الحركة قد إنتهت حرباً كذلك لظل فيروز هو الحاكم المطلق على اليمن فى عهد أبى بكر وأكثر مما كان باذان فى عهد

الرسول ، لأن أبى بكر قد أمر بتولية فيروز هذا فى الأيام الأولى من خلافته بعد وفاة الرسول واغتيال عهلة العنسى واستلام قيس بن مكشوح المرادى لقيادة الحركة بعد إغتيال العنسى ، حيث كان فيروز الفارسى هذا هارباً ومتخفياً فى إحدى ضواحي صنعاء البعيدة فى خولان ، وسطر له أبى بكر خطاب توليته المشهور إلى ذو الكلاع الحميرى لى يعينه على إسترداد السلطة جاء فيه قوله : أعيونا الأبناء على من ناونهم وحوطوهم واسمعوا من فيروز وجدوا معه فإنى قد وليته^(١) . ولكن ذو الكلاع لم يستجب لأنه لم يثبت قط أن ذو الكلاع أو احد من حمير بكاملها قد ناهض الحركة الوطنية تلك لصالح الفرس من الأبناء إذا لم يكونوا قد شاركوا فيها فى المراحل الأخيرة كما هو الراجع .

والحقيقة الثابتة التى تكمن وراء إعادة الأمور إلى مجاريها بالنسبة لأهل اليمن وعلاقتهم بسلطة المدينة هو أن ما يشبه التفاوض السياسى قد تم بين الخليفة أبى بكر وزعماء الحركة قام الخليفة بموجبه بمراجعة كل المواقف السابقة لسياسته المدينة تجاه اليمن وأنها بموجبه شرعية حكم الأبناء فيها والكف عن أى دعم سياسى أو معنوى لهم ومنح قادة الحركة حق الأمن والبقاء فى بلادهم وفى حاضرة المجتمع الإسلامى الجديد فى المدينة ، والاحتفاظ لهم بحق المشورة فى السياسة والقيادة فى الحرب ضد المرتدين الحقيقيين فى وسط وشمال الجزيرة العربية والاستعداد لتحرير بلاد الشام والعراق ومصر وفقاً لخطّة كان الرسول قد أوصى بها قبل وفاته . وهو الأمر الذى يشير إليه الدكتور الحديثى بقوله : « ومن المحتمل جداً ورود إشارات الى مفاوضات بين الخليفة وبين بعض قادة أهل اليمن ناتجة عن تمتعهم بنفوذ خاص » وما كان للدولة الخلافة أن

(١) راجع تاريخ الحداد ص ١٥٣ ، مع ملاحظة أن الحداد يخلط خلطاً متناقضاً فى هذه المسألة فهو ينسب إلى قيس بن مكشوح المرادى التواطىء مع الأبناء فى قتل عهلة وهذا غير صحيح لأن المتواطىء الحقيقى هو فروة بن مسيك المرادى كما سبقت الإشارة عن هذا الشخص وليس قيس ، ويبدو أن الأمر قد اختلط بين الاثنين عند الحداد وبعض الرواة الآخرين ، وإذا كان قد جزم بعضهم بمثل هذا أو قيل فى حينه كذلك فهو أمر من قبيل الدس والأساءة إلى عناصر الحركة وقيادتها ، لأن قيس لا يمكن أن يكون قد تأمر مع الأبناء لقتل عهلة ثم يباشر عملية التكتيل بهم وطردهم من صنعاء ومن اليمن بما فيهم فيروز نفسه ، إنتقاماً منهم لقتل عهلة ودون أن يتغير المجرى العام للحركة .

تهض بحروب التحرير دون الاعتماد على قوة وخبرة اليمنيين العسكرية وكثافتهم البشرية^(١). وتبقى ملاحظة واحدة قبل الحديث عن حروب التحرير الإسلامية ودور اليمنيين فيها، وهى ملاحظة تخص عهلة العنسى هذا واحده، الذى دأب المؤرخون والرواه على جعله كبش الفداء والشماعة التى يعلقون عليها كل ما شأت لهم خيالاتهم وعواطفهم المتعصبة عن تلك الأحداث ، لا لشيء إلا لأن هذا الرجل كان هو الشخص الوحيد من قادة الحركة الذى استشهد غيلة من قبل الأبناء من الفرس ، لأن أى من قيس بن مكشوح المرادى أو معد بن يكرب الزبيدى أو الأشعث بن قيس الكندى ، أو أبو موسى الأشعرى وغيرهم لم يكونوا بأقل أهمية من عهلة فى هذه الحركة ، ولو أن العمر قد امتد به عاما واحدا على الأقل بعد وفاة الرسول لكان أجدرهم جميعا بالقربى من أبى بكر وأقدرهم على قيادة جيوش التحرير والفتح الإسلامى وأكثرهم إشتياقا لدق أبواب فارس لتخليص دين قريب العهد لليمن ما تزال له بقية هناك ، ولبنيت له قصور فى الجنة بعد موته بدلا من خلوده فى مغارات جهنم ، فهل آن الأوان أن ننصف التاريخ بالحقيقة والعقل ممن يشوهونه بالضلالة والتعصب . ؟

وفى الفصل الثالث من الباب الثانى من كتاب أهل اليمن فى صدر الإسلام يتحدث الدكتور الحديثى عن دور أهل اليمن فى « حروب التحرير » وهى فى تقديرنا تسميه زاخرة بالدلالة ، وتؤكد بحق بأن الجيوش الإسلامية لم تكن جيوش غزو كما يصفها أعداء الإسلام والعروبة من القوميات الأخرى ، من الفرس والرومان والصليبيين ، كما أنها لم تكن حتى جيوش فتح كما يسميها مؤرخوا الإسلام أنفسهم ، ولكنها حقيقة كانت جيوش تحرير قوى بالنسبة للشام والعراق ومصر وشمال أفريقيا على الأقل ، حيث أشار الدكتور الحديثى تأكيداً لهذه الحقيقة إلى مواطن العروبة البارزة فى

(١) د . عبد العليف الحديثى : أهل اليمن فى صدر الإسلام ، ص ١٣٥ إلى ١٣٧ .

هذه الأمصار منذ ما قبل ظهور الإسلام بزمان بعيد (١) وهو يعطى أهل اليمن بالاستناد إلى إجماع المصادر التاريخية حقهم في ذلك سواء فيما يتعلق بمواطنهم القديمة في هذه الأمصار قبل الإسلام ، أو ما اضطلعوا به من دور تاريخي وحضاري بارز في حروب التحرير بعد الإسلام وتوطيد أسس ومقومات الدولة العربية الجديدة داخل الجزيرة وخارجها ، وذلك في مقابل التردد الواضح والمشاركة الهامشية لقبائل شمال ووسط الجزيرة العربية في مكة ونجد والحجاز وما في حكمها .

فالحديثي يذكر عن حروب الشام قوله : إن الخليفة كان يدرك أن أهل مكة تجاراً وأن اقدامهم على القتال بطيء ، كما أن بقية الجزيرة في الشمال والشرق كانت مرتدة ، لذا تراه يخص أهل اليمن (٢) . وفي موضع آخر يقول الدكتور الحديثي إستناداً إلى رواية الأزدي في التاريخ الكبير : يبدو أن تأثير الانتصار الذي حققه المسلمون في اجنادين إقتصر على أهل مكة الذين تحلفوا عن الخروج إلى الجبهة ، أما أهل اليمن فالراجح أن أهلها كانوا قد خرجوا في بداية المعارك ، وفي معركة اليرموك ودمشق وردت اوسع الاشارات عنهم ، فالأزدي يذكر في معركة اليرموك بقوله : وفيها الأزدوهم ثلث الناس ، وفيها حميروهم عظم الناس ، وفيها همدان وخولان ومدحج وخثعم وكندة وحضر موت ، ومعهم « جماعة » من كنانة ولكن عظم الناس أهل اليمن (٣) .

وفي جبهة العراق يذكر الدكتور الحديثي إستناداً إلى تاريخ الطبري قوله : وقد ادرك الخليفة عجز الحجاز عن إمداد العراق ، وظهر له هذا العجز في تشكيل جيش أبي عبيده الثقفي ، حيث تأخرت إستجابة الناس للقتال ، ويعلل الطبري تأخرهم بقوله : وكان وجه فارس من أكره الوجوه

(١) أهل اليمن في صدر الإسلام . ص ١٤٨ .

(٢) المرجع السابق ص ١٢٦ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٢٨ .

إليهم وانقلها عليهم لشدة سلطانهم وشوكتهم وعزهم وقهرهم الأمم (١) . ويضيف الحديث استناداً إلى رواية الأزدي والطبري أيضاً قائلاً : ويلاحظ في جبهة العراق ان دور أهل النين واضح كدورهم في بقية الجبهات ، أما قبائل مضر وربيعة فقد اقتصر دورهم على العراق فقط ، ويعلل المؤرخون ذلك بأن دارهم عراقية وأنهم كانوا ينزعون إلى العراق ، علماً بأن تاخر خروجهم يعني تأخراً عن الإسهام في حروب التحرير حتى سنة ١٤ هجرية (٢) ، ولقد كانت المعادلات السياسية والعسكرية في جبهة مصر لا تختلف عن جبهة الشام والعراق بالنسبة لأهل اليمن إن لم تكن أكثر بروزاً .

والدكتور الحديثي يختم كتابه بفصل قيم عن كيفية استقرار اليمنيين القادمين مع نسائهم واطفالهم في جيوش التحرير في كل من الشام والعراق ومصر في صدر الإسلام ، وكيف خططوا لاقامة مدنها وقلاعها وقراها اعتماداً على حقائق ناصعة وموجزة وبالغة الأهمية والدلالة بحيث تجعل من هذا الكتاب القيم مدخلاً جيداً لا مجرد الوصول إلى تحقيق رؤية إجتماعية تاريخية صحيحة عن أهل اليمن فحسب ، بل وعن المجتمع العربي والاسلامي بصفة عامة كما سبقت الإشارة .

وفي ضوء كل ذلك نستطيع ان نتصور كيف ترجم اليمنيون كل أبعاد حبههم واخلاصهم للدعوة وطموحاتهم وامالهم الوطنية والقومية التي علقوها عليها تحت قيادة أبي بكر ومن بعده عمر بن الخطاب ، والتي كانت سنوات خلافتها بعد الرسول هي بحق العهد الذهبي ، لا بالنسبة لليمنيين فحسب بل وبالنسبة للتطبيق الحقيقي لجوهر الدعوة الإسلامية ومثلها واخلاقياتها النقية على النطاق السياسي والاجتماعي والديني الذي كان يطمح إليه اليمنيون ، وحتى عودة الأرستقراطية التجارية والاقطاعية الأموية إلى السلطة في عهد عثمان ، وبشكل نهائي في عهد معاوية ، الذي يمكن إعتباره عهد مفترق الطرق بلا رجعة هذه المرة .

(١) المرجع السابق ١ ص ١٣٠ . وكذلك تاريخ الطبري ج ٣ ص ٤٤٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٣٤ . والتاريخ الكبير ١/ ١٦٢ . الأزدي : ١٩٥ .

والطبري ٣/ ٣٨٧ . (نقلاً عن المرجع السابق) .

فعثمان يعيد من الطريق ، « يعلى بن أمية » عاملا على اليمن وهو راكباً ، بعد أن كان عمر قد طلبه للوصول من صنعاء إلى المدينة مشياً على الأقدام ، عقوبة له على ماشكاه أحد المواطنين اليمنيين من « أهل حفاش » إلى عمر من إعتداء موالى « يعلى » عليه بالضرب دون أن يعاقبهم ، إلا أن عمر توفى قبل وصول « يعلى » إلى المدينة فقابلته رسول عثمان إلى الطريق وأخبره بما حدث من موت عمر وسلمه أمر العودة من عثمان إلى اليمن دون أن يسأل عن سبب استدعاء الخليفة الراحل له بهذه الصورة ! بل لقد طلب « يعلى » هذا من عثمان واشترط عليه أن لا يدخل صنعاء من جديد حتى يأذن له بهدم قصر نعمدان وملحقاته ، نكاية في اليمنيين وإمعانا في الإساءة إليهم ، وإلى مشاعرهم الوطنية ، لأن القصر وملحقاته من المباني التاريخية الهائلة التي كانت تمثل مركز ومقر لإدارة الدولة القديمة التي لم يعتاد « يعلى » هذا وأمثاله مثلها من قبل ، وأنها مآثر تشكّل مصدر كبرياء اليمنيين وتحضرهم كلما أمعن « يعلى » هذا في الإساءة إليهم أو التقليل من شأنهم ، وقد وافقه عثمان على ذلك وأمره بهدم القصر وملحقاته باعتبارها ديار كفر (١) فعاد « يعلى بن أمية » إلى اليمن فعاث وعبث ، وتولى تهديم قصر نعمدان ومحاوله بناء على أوامر عثمان الذي أقر عمالة يعلى على اليمن حتى مات .

أما معاوية فقد كانت أولى بوادر سلطته الملكية الامبراطورية بالنسبة لليمن هي إعادة تولية من بقى من الأبناء الفرس من جديد لمقاليد السلطة في اليمن ، ومنهم فيروز الديلمي وابنه الضحاك بن فيروز (٢) وهكذا صارت الرياح من جديد وإلى غير رجعة تجرى بما لا تشتهي السفن كما يقول المثل . هذه بالضبط هي الجذور المادية والموضوعية لمتغيرات الأحداث الاجتماعية والتاريخية في المجتمع اليمني قبل وأثناء ظهور الدعوة الإسلامية وحتى انتصارها

(١) راجع عبد الرحمن بن علي الديبع الشيباني الزبيدي المتوفى عام ٩٤٤ هجرية : قرّة العيون بأخبار اليمن الميمون ، تحقيق القاضي محمد بن علي الأكوع الحوالى مطبعة السعادة بمصر ، ١٩٧٧ ، ص ٨٣ (أنظر الهامش) .

(٢) راجع محمد يحيى الحداد : تاريخ اليمن السياسى ، عالم الكتب المصرية الطبعة الثالثة ، ١٩٧٦ ، ص ١٥٠ إلى ١٥٥ .

وافقادها لنقاوتها وطهرها من جديد، والتي أخطأت سلطة الخلافة الإسلامية في المدينة في فهمها ، حينما عجزت عن إدراك الدوافع السياسية والاجتماعية والتاريخية لاستجابة اليمنيين للدعوة وحماهم لها بلا قيد أو شرط ، وكيف نظرت دولة الخلافة إلى هذه المسألة نظرة سطحية ومثالية دينية بحجة لانتحولا من الميل إلى فرض علاقة سياسية واقتصادية غير متكافئة بين الشمال والجنوب خابت معها كل طموحات وآمال اليمنيين وقادتهم الذين استجابوا للدعوة ووصولاً إلى تحقيقها ، بدأ بإقرار سلطة الأبناء من الفرس على اليمن وانتزاع كل خراجهم الكثير إلى المدينة ، مروراً بأحداث السقيفة بعد وفاة الرسول مباشرة ، يوم أن وضعت العصبة القائمة على الدم « الأئمة من قريش » - كما يقول الدكتور عبد السلام نور الدين - في مواجهة الأخوة القائمة على الدين ، ووضعت الأفضلية القائمة على الإقليمية أو السبق إلى الإسلام أو تأخره « منا أمير ومنكم أمير » في مواجهة الأفضلية على التقوى^(١) ، وصولاً إلى استعادة البرجوازية والقطاعية الأموية لامتيازاتها الطبقية والسياسية القديمة التي فقدتها بعد فتح مكة في عهد عثمان وبصورة نهائية في عهد معاوية ، حينما أفرغت الدعوة الإسلامية من كل مضامينها السياسية والاجتماعية النقية بصفة عامة ، حيث لم تنتهى بفعل ذلك كل آمال اليمنيين وطموحاتهم القديمة الجديدة فحسب ، بل وضاعت معها آمال وحقوق كل من تعلق بهذه الدعوة الإنسانية داخل الجزيرة العربية وخارجها من بسطاء الناس وفقراءهم حتى اليوم .

التطورات اللاحقة

ومن النتائج والتطورات الأكثر جدة في هذا الشأن ، التي يمكن الخروج بها من خلال مراجعة بسيطة لوقائع التاريخ اللاحق والذي يمثل الامتداد الأكثر سوءاً لما قبله والتي عانتها أجيالنا الوسيطة والحاضرة في اليمن الى ما لا يتجاوز العشرين عاماً الماضية وبالتحديد عام ١٩٦٢ وهو عام قيام الثورة وإلغاء الملكية التي تؤكد صدق وموضوعية كل ما ذهبنا إليه من تحليل حقيقة شيوع وأصالة

(١) د . عبد السلام نور الدين : مقال في مجلة اليمن الجديد ، عدد يناير فبراير ١٩٧٨ ، ص ١٤ . وانظر في ذلك أيضاً ، الملل والنحل للشهرستاني الجزء الأول مؤسسة الحلبي ، ص ٢٢ .

الزروع العقلاني والعلماني وتقلص الجوانب الاعتقادية المشوهة في جذور التكوين الحضاري والوجداني لهذا المجتمع ، وهو ما جرى من أحداث وصراعات بين التيارات المتصارعة طوال عهود الخلافة الأموية والعباسية والفاطمية ، حيث كانت اليمن تحتل مكاناً هاماً في حسابات المتصارعين ، وبالذات التيار اللبرالي ، الذي كان معظم قاداته من شيعة ومعزلة وخوارج وأسماعيلة وقرامطة وغيرهم يعتقدون جازمين سراً على الأقل بأن انتصارهم سيبدأ من هذه المنطقة التي بدأ منها وبأهلها انتصار الدعوة الإسلامية نفسها ، حيث كانت اليمن مسرحاً حياً لنشاطهم الفكري وانتصاراتهم السياسية وإقامة دولهم المستقلة عن مركز الخلافة ، ابتداء بدولة القرامطة تحت زعامة علي بن الفضل ومنصور الكوفي ، ومروراً بحلفائهم المعتدلين من الصليحيين وكذلك دولة الخوارج في حضرموت وزيد (١) . والذين طبقوا وهم في السلطة معظم ما آمنوا به من مبادئ لبرالية نموذجية قبل وصولهم إليها ، وانتهاء بإحدى فرق الشيعة المعتدلة وهي « الزيدية » نسبة الى الإمام زيد بن علي ، التي لم يكن مذهبها ومبادئها أقل عقلانية ولبرالية وتححرر من سابقهم ، ويكفيهم أنهم اعتزالوا في أصولهم الفكرية ، إلا أن هذا التيار حينما كان يصل قاداته من الأئمة السابقين واللاحقين الى السلطة ، ويحكمون قبضتهم السياسية على البلاد ، كانوا يمسحون جوهر هذا المذهب اللبرالي والعقلاني الأصل ، مسخاً لم يسبق له مثيل وأماتوا فيه كل بادرة للعقل والحرية أو المساواة بين الناس ، وعلى العكس من ذلك فقد حفل تاريخهم بالمهازل الكثيرة لكثرة المدعين الذين لم يكن يمحى على بعضهم أكثر من أيام معدودة (٢) وقد أظهروا في ممارساتهم وتطبيقاتهم العملية حقيقة الموقف الانتهازى لغلاة الشيعة المنحرفة والمشوهة في العراق وغيرها ، والذين تقوم أساس مبادئهم على التفرقة والتمييز العنصري والسلالي الموهوم ، والحقوق الإلهية الموروثة ، الى غير ذلك من الخرافات والأساطير السخيفة التي حاولت

(١) سلطان ناجي : تاريخ اليمن الاسلامي مقال في مجلة اليمن الجديد عدد نوفمبر

ديسمبر ١٩٧٢ ص ٢١ .

(٢) راجع بصفة عامة صفحات مجهولة من تاريخ اليمن ، تحقيق وتقديم حسين السباعي

مركز الدراسات اليمنية صنعاء ١٩٧٨ .

أسرة بيت حميد الدين ومن دار في فلكلها ، وهى آخر أسرة ملكية أمامية وصلت الى السلطة وأحكمت قبضتها على اليمن فيما يقرب من خمسة وسبعين عاما ، حاولت تكريسها في اليمن مستخدمه كل الجهد المعزز بالقوة السياسية والقمعية (١) .

فحرما الزواج بينهم وبين غيرهم ومن لا يدينون بالمذهب المشوه ، ولا يدعون الانتساب الخاطيء والوهى إلى فاطمة ، كما رفضوا تعايش الآخرين معهم إلا وفق شروط من الاحترام والتقدير والطاعة ، وكان الإمام يزعم بنفسه في موكب مهيب احتفالات عاشوراء ويوم الغدير في إحدى ضواحي صنعاء بكل مضامينه وطقوسه المعروفة لدى غلاة الشيعة في العراق وإيران والهند وباكستان حتى اليوم ، ومارسوا بكل وضوح التمييز العرقي والسلالي والمذهبي في الحقوق السياسية ، التي حرم منها كل من لا ينتمى الى هذه السلالة الوهمية أو إلى التشيع المتعصب لخدمتهم وطاعتهم على الأقل ، والتمييز بنسب مختلفة بصورة مباشرة وغير مباشرة في كل الحقوق المدنية والاجتماعية والدينية ، بعد أن ألقت هذه الأسرة وكل من دار في فلكلها بكل أصول المذهب في سلة المهملات وناصبوا الحقد والقمع الوحشي كل من حاول انتقادهم أو التنبيه إلى مساوئهم من العلماء والوطنيين ومن أشد الناس قرباً منهم ، ممن حملوا معهم الفكرة ودعوا إليها منذ البداية ، وارتكبوا في ذلك المذابح والجرائم التي لا تنسى (٢) . بما في ذلك جماعات مذهب المطرفية الذي حمل أتباعه لواء

(١) محمد بن يحيى الحداد : تاريخ اليمن السياسى الطبعة الثالثة ص ١٨٤ (الهامش) ص ٣٣٧ و ص ٣٤٧ - ٣٤٩ طبعة القاهرة ١٩٧٦ م .

(٢) لقد كان من أبرز أشكال الفرض والمعارضة لسياسة الأئمة إلى جانب المواقف الفردية والجماعية للعلماء والوطنيين هو ظهور مذهب « المطرفية » نسبة إلى مطرف بن شهاب وهو من المذاهب الدينية المغمورة في اليمن وهو منفصل عن المذهب الزيدى والذي حافظ على جوهر منطلقاته وقارح بها الأئمة القدماء واللاحقين ، وقد أبلى أتباعه بلاء حسناً ونكل بهم شرتنكيل ، من قبل الأئمة ، أنظر في ذلك مجلة اليمن الجديد عدد نوفمبر ديسمبر ١٩٧٧ ، مقال للباحث عبد الله الحبشى بعنوان : المطرفية مذهب مجهول في اليمن ص ٤٧ يناير فبراير ٧٨ ص ٣٦ إلى ٤٤ في نفس المجلة وانفس الكاتب وبنفس العنوان ، وكذلك العدد الذى يليه دراسة لنفس الموضوع في حلقات .

المعارضة من داخل المذهب الزيدى أولاً ، ثم انفصل عنه حينما لم تجد معارضته ، وأبلى أتباعه بلاء حسناً من قبل الأئمة .

ويكفى دليلاً على خروجهم وانحرافهم عن أصول الفكر الاعتزالي الذي أنبنى على مذهب زيد بن علي أنهم أحالوا السلطة من قضية تقوم على الاختيار والبيعة والشورى ، الى مسألة تقوم على الملك والوراثة .

كما أنهم قد تعمدوا تشويه التاريخ السياسى والاجتماعى المبني بالنسبة لكل من سبقهم أو عاصرهم فى مرحلة النشأة ومن يقتربون من أصل مذهبهم من أهل الرأى والاجتهاد والعقل ، كالقرامطة والاسماعيلية ، الذين شوه تاريخهم على يد هذه الأسرة وغيرها أيما تشويه ، ويتم عن حقد وكره سياسى وطبقى وعرقى لا علاقة له بأى معنى من معانى الدين النقية ، والذي كان مجرد غطاء وثوب شفاف لكل أشكال الصراع السياسى والاجتماعى فى اليمن وخارج اليمن .

ولقد كان جدير بهذا الجهد المركز والطويل المدى ومن خلال امتلاك السلطة السياسية المركزية القوية وفرض العزلة الخارجية والداخلية والركود والتخلف المريع ، كان جدير بكل ذلك أن يغزو قاع المجتمع ويخلق البؤر والجيوب الاجتماعية والحضارية المتحجرة والقادرة على البقاء والاستمرار والتفريخ والولادة ، لكل تلك الأفكار والمفاهيم العقائدية والأرستقراطية والكهنوتية والخرافية الضحلة ، من طراز ما يمكن مشاهدته حتى اليوم فى كربلاء والنجف ، أو حول القبر الوهمى للحسين فى مصر والسيدة زينب أم هاشم « السيد البدوى » فى مصر أيضاً ، وكذلك ما يجرى على هذا النمط أو ذاك فى إيران وبلاد الهند والباكستان من فئات مدعى الإسلام من هذا الطراز ، وهو ما كانت هذه الأسرة وأشيعاها فى اليمن يهدفون إليه ويعملون من أجله بكل الوسائل ، ولكنه بالرغم من كل ذلك ومن النجاح الجزئى لمثل تلك المفاهيم والأهداف الهدامة ، إلا أن أى شىء حقيقى وحاسم لم يتم ، إذ لا يوجد اليوم فى اليمن شخص واحد منها كان جهله أو تخلفه الذهنى والعقلى يرفع سلسلة أو فأساً أو سكيناً ويضرب بها جسده حتى يدمى أو يموت تكفيراً عن الشعور بعقدة الذنب المرضية لمقتل الحسن والحسين أولاد على

بن أبي طالب ، كما يحدث في العراق وإيران وبعض مناطق الخليج العربي ، كما لا يوجد هناك في اليمن بطولها وعرضها مكاناً صغيراً كان أو كبيراً تشد إليه الرحال وتقام فيه المآتم والمحافل الأسطورية تبركاً أو نظيراً على الأصح بهذا القبر أو ذلك وعرض الشكوى وانتظار قضاء الحاجة سراً وجهرأ كما يحدث في مصر ، ولم تستطع عجوز أو طفل أن يتمسك طويلاً بعقيدة أو فكرة أن الإمام هو ظل الله في أرضه ، وأنه كان يعلم الغيب وبمحكم الجن والإنس ، وأن الرصاص لا تقوى على اختراق جسده ، إلى غير ذلك من الأفكار الخرافية التي كان يحرص الطغاة على ترويحها عن أنفسهم لتخويف الناس ومحاولة مسخ تفكيرهم (١) .

ولقد انتهى كل أثر تقريباً لكل تلك المخلفات العفنة ونسف المجتمع البني كل مفاهيمها ومضامينها الرجعية الكهنوتية المتخلفة وأعاد فلسفة حياته كلها تقريباً من جديد ، بحثاً عن وجوده الحقيقي المفقود من جديد عبر مرحلة تاريخية جديدة من النضال والمعاناة منذ ثورة عام ١٩٦٢ التي ألغت الملكية والإمامة ووضعت حداً نهائياً لحكم تلك الأسرة ومن دار في فلكها إلى الأبد ، وأقامت نظاماً جمهورياً وشعبياً لا يفرق بين شخص وآخر أو فئة وأخرى (٢) . وهو اليوم يتعامل مع أكثر أفكار العصر عقلانية وعلمية وتحرراً ، أفكار الأمية والإشتركية التقدمية ، ويبني من خلالها حاضره ومستقبله ، محققاً بذلك أشجع تجربة ثورية وتقدمية معاصرة ليس على النطاق القوي فحسب بل وعلى نطاق بلدان العالم الثالث أيضاً .

(١) من الوقائع المشهورة التي تؤكد رغبة سياسة الأئمة المتأخرين جداً في نشر الخرافة وجعلها عقيدة من أجلهم ، القصة التي حدثت في أواخر أيام الإمام يحيى تقريباً ، حيناً أراد أن يعرف مدى ماقد وصلت إليه جهوده وجهود أشياعه في عملية نشر الخرافة والأفكار المسمومة وتقبل الناس لها ، حيث أعلن رسمياً بأنه سيطلق سراح ملك الجن من عقاله وأنه سينطلق هو وجنّه في كل مكان وعمل كل إنسان لكي يتجنب شروهم أن يضع بين عينيه علامة سوداء من القطران في ذلك حرز لهم ، ففعل كثير من الناس فعلاً واضطربت مشاعرهم إلى حين ، وهي واقعة لم تنس بعد .

(٢) راجع حمود العودي : المنظور العلمي للثقافة دراسة خاصة عن المجتمع اليمني ص ١٢٦ ، ١٢٧ طبعة للقاهرة ١٩٧٣ م .

وقبل أن نهى الحديث حول هذه النقطة الهامة ألا يكون من حقنا القول بأن في هذا الأمر أيضاً قرينة إجتماعية وحضارية أخرى دالة على أصالة النزعة العقلانية المتحررة في وجدان هذا المجتمع ، والزهد وقلة الانصباع بسهولة للجوانب الاعتقادية المشوهة ؟ ؟ وأن هذا المجتمع لم تكن لديه القدرة والحساسية الذهنية والعقلية على تمثيل واختزال المفاهيم والجوانب الإيجابية للحياة بنفسه مادياً ومعنوياً فقط ، بل لقد تمتع وما يزال بقدرة وبداهة حضارية جيدة على حماية نفسه من المؤثرات السلبية التي قد يراد فرضها عليه بطريقة أو بأخرى .

وأخيراً فإنه ما من شك في أن التاريخ والكشف عن المذخور الحضارى الهائل برمته في هذه المنطقة وإعاده تقنينه ، والذي لا بد وأن يتم قرب الوقت أم بعد ، سوف يزيد من تأكيد هذا الموقف أو يعدل منه ، بصورة نسبية ، ونحن لا نريد أن نستبق الزمن ونقطع دابر البحث والتأمل تجمساً عشوائياً لهذا الموقف ، بقدر ما نحن نقدمه من خلال كل ما استطاعت الوقائع والحقائق المادية المتاحة أن توفره لنا من ثقة واطمئنان علمي في اختزاله واستخلاصه من خلالها ، وذلك أن الأمانة العلمية يجب أن لاتجعلنا نضع مواقفنا وآراءنا الخاصة فوق حقائق العلم والواقع ، وهو الأمر الذي دفع بعض المتجهدين المعاصرين خطأ إلى القول بفكرة « السجية الفردية للمجتمع اليمني » التي تحدث عنها زيد الوزير بإسهاب في كتابه محاولة لفهم المشكلة اليمنية الذي نشر عام ١٩٧١ ، التي أراد أن يؤكد من خلالها — بطريقة فجأة — تأصل قيم وسجايا روحية ودينية وحضارية في الشعب اليمني ترتكز بالدرجة الأولى على فكرة تمسكه بالإمامة ، حيث يقول في صفحة (٨٠) مانصه : إن وجود إمام على رأس الثورة يتسق وتقاليد إرث طويل في تاريخ اليمن ، إذ أن المنطق يفرض علينا أستناداً إلى واقع المجتمع اليمني المتدين التسليم بضرورة وجود إمام يدعم من خلال « تخلق » عواطف الجماهير المتدينة وجود الثورة ويمكن لها (١) . هذا بالرغم من أنه يؤكد في مكان آخر من الكتاب ما نصه : بأن حضارة

(١) زيد الوزير : محاولة لفهم المشكلة اليمنية ص ٨٠ الشركة المتحدة للتوزيع بيروت ١٩٧١ م .

اليمن القديمة والحديثة ذات مضمون إنساني وعقلي إلى حد كبير ، وقد اتخذ من حرية الإنسان وسعادته هدفها لها ، وأنا لا أدري كيف استطاع الأخ الوزير أن يوفق بين المضمون الإنساني والعقلي للحضارة اليمنية القديمة والحديثة ومفهوم الثورة أيضا وهو ما نتفق معه في ذلك ، وبين مفهوم « سجية الإيمان بالإمامة » في المجتمع اليمني ، وقد كان هو أكثر الناس معرفة والتصاقا بها وأوفر الناس حظاً من خيرها وشرها .

إلا إذا كان يريد بذلك وجود إمام من نوع جديد وهو ما يقصد إليه بالفعل تقريباً ، من ضرورة وجود إمام جديد يمكن للثورة من خلال « التعلق والتلاعب بعواطف الناس » فإن مثل هذا الفهم وهذا المنطق يتعد كثيراً وبلا أى صلة بأى تفكير موضوعي أو منطقي سليم ولا يمكن قبوله إلا باعتباره امتدادا لنفس المفاهيم والأنماط الإمامية القديمة المنحطة وأن الإمام الذي يريده زيد الوزير - بوعى تام منه - لا يختلف كثيراً عن الإمام الذي أراده ناصر بن مبخوت الأحمر - بسذاجة - حينما وقف في وجه معارضي الإمام يحيى في بداية حكمه المشنوم قائلا : الأمامة في هذا السيد مشيراً إلى الإمام يحيى ، ومن خالف فليس له إلا هذا ، وأشار إلى البدقية (١) . . . وإذا كان الأحمر قد نجح وتوصل إلى ما أراد بمساعدته الإمام على الإمساك بالسلطة ولقى هو وأولاده من بعده جزاء سنار بعد ذلك ، فإنه من حسن حظ الأخ زيد الوزير أنه لم ينجح في الوصول إلى ما أراد ولم تعد الظروف تسمح بدوران عجلة التاريخ إلى الخلف ، وذلك مع تقديرنا لكل النوايا والمقاصد التي قد تغاير هذا المفهوم لدى الكاتب (٢) .

خاتمة الفصل : نتائج واستخلاصات عامة

وقبل أن نتقل إلى مواقف وأحداث لاحقة ، دعونا نتوقف قليلا عند هذه الخاتمة والاستخلاصات العامة من هذا الفصل ، وننظر ماذا يمكن استخلاصه باختصار من مجمل المواقف والأحداث السابقة من وجهة النظر الاجتماعية والحضارية المرتبطة بصميم بحثنا هذا ، وسنجد أن أول بديهة

(١) راجع عبد الله بن أحمد النور : ثورة اليمن طبعة القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٨ .

(٢) راجع زيد الوزير : محاولة لفهم المشكلة اليمنية ، أماكن متعددة من الكتاب .

يمكن استخلاصها بسهولة ، هي أن المجتمع اليمنى استطاع أن يتعامل خلال أقل من قرنين من الزمن مع عقيدتين دينيتين هما : « اليهودية والمسيحية » وهما من أعظم ما عرفته البشرية من الديانات والعقائد الكبرى حتى اليوم ، تعامل معهما تعاملًا سياسيًا واجتماعيًا وليس عقائديًا ودينيًا على طول الخط ، ثم تخلى عنهما في نفس الوقت بنفس السرعة وبذات الطريقة بعد أقل من مائة عام من بداية تعامله معهما كتيارات سياسية واجتماعية بالدرجة الأولى. وبالتحديد ما بين عامى ٥٠٠ و ٦٢٠ ميلاديه على أكثر تقدير ، كما سبقت الإشارة في مكان سابق من هذا البحث وهى فترة الاضطراب التاريخى الشديد التى بدأت بذونواس حوالى العام ٥١٥ وحتى ذويزن حوالى العام ٦١٠ تقريباً ، حيث كان الإسلام قد بدأ يندق على الأبواب وذلك دون أن يفقد توازنه النفسى والحضارى أمامهما وبفعل تأثيرهما ، رغم ما كان قد أصابه من حالة الضعف والتمزق ، مؤكداً بذلك مدى ما يتمتع به هذا المجتمع من مرونة وقابلية وجدانية وحضارية للأخذ والعطى والتعامل الموجب مع المتغيرات والأحداث بسهولة . ومن موقع القوة والثقة بالنفس التى تحول بينه وبين الاستسلام السلبي لأى متغير مهما كانت طبيعته ومضمونه ، خصوصاً إذا ما تذكرنا ما تواجهه عادة كل المبادئ والدعوات السياسية والأيدولوجية أو الدينية بالذات قديمة كانت أم حديثة مهما كانت مفيدة ونافعة من مصاعب الرفض والمقاومة فى بدايتها بالنسبة لمعظم الشعوب والأمم ، والدعوة الإسلامية التى رفضت فى منبتها ونكل بصاحبها وأتباعه أشد تنكيل وما واجهته أثناء عملية نشرها من مصاعب ومقاومة لم يحل معظمها إلا حد السيف فى أكثر من مكان لأعظم دليل على ذلك .

أما اليمينيون فقد كان لهم موقفهم المتميز من كل ذلك ، فهم قد جربوا اليهودية وتحمسوا لها ، وتعاملوا مع المسيحية وخبروا ما عندها بدافع من أنفسهم دون أن يحلمهم أحد على ذلك ، بحثاً عن مخرج وحل لمشاكلهم السياسية والاجتماعية الخاصة ، لا استسلام لفكرة الاعتقاد الدينى فى حد ذاته ، الذى لم يجد له طريق إلى نفوسهم فى أية لحظة خصوصاً فيما يتعلق باليهودية والمسيحية ، اللتان أخفقتا فى أن تقدم لهم حلاً لما يعانون منه ، بل اكتشفوا

أنهم قد أضافوا من خلال التعامل معهما مشا كل جديدة إلى حياتهم السياسية والاجتماعية .

وحينما جاء الإسلام تعاملوا معه بنفس الطريقة ولنفس الغرض، وكان أكثر قرباً مما يبحثون عنه ، وإن كان لم يقدم لهم الحل الناجز لمحتهم التاريخية كما توقعوا حتى اليوم ، إذا ما استثنينا فترات قصيرة ومحدودة من التاريخ سبقت إليها الإشارة كعهد أنى بكر وعمر ، إلا أنه قد ظل وما يزال يشكل انتماها قومياً ووطنياً وتاريخياً حتى يومنا هذا أكثر من مجرد كونه عقيدة دينية بالنسبة لحاضر ومستقبل اليمنيين بصفة خاصة والأمة العربية بصفة عامة .

ونود أن نصل من خلال كل هذا إلى مجموعة حقائق اجتماعية هامة ، وذات دلالة واضحة على نفشى ورسوخ المفاهيم العقلانية والعلمانية والعملية ، والزهد فى الجانب الاعتقادى فى حياة اليمنيين وحضارتهم من ناحية ، والمرونة والقابلية للأخذ والعطاء والتعامل مع كل المتغيرات الخارجية اللاحقة ، لا لذات المتغيرات نفسها دينية كانت أم سياسية أو اجتماعية ، وإنما بحثاً من قبل اليمنيين عن استعادة ذاتهم التى أحسوا بضياها بعد سقوط وتدهور حضارتهم ، ومن خلال هذه المتغيرات التى ما أجدت ولا أثمرت إلا مزيداً من التمزق ومزيداً من الضياع والتخلف حتى اليوم ، وتمثل مجموعة هذه الحقائق فى :

(أ) أن الديانة اليهودية قد وجدت فى شمال الجزيرة منذ عهد قديم ولم يكن اليمنيون وهم فى أوج حضارتهم المزدهرة بعيدين عن العلم بهذه الديانة وأهلها ، كما أن المسيحية قد وجدت أيضاً فى فترة لاحقة فى نفس المكان وتصارعت صراعاً مريراً ودموياً مع اليهودية والوثنية الفارسية ، تجسدت قتها فى قتل السيد المسيح وصلبه ، ولم يكن اليمنيون وهم لا يزالون كذلك فى أوج حضارتهم العقلانية المزدهرة بعيدين عن العلم بهذه الديانة وصراعاتها مع اليهودية ، بحكم انتشار نفوذهم وعلاقاتهم السياسية والاقتصادية على طول وعرض منطقة الشرق القديم وحتى بلاد الهند وغيرها ، بل لقد كان الكثير من اليهود كعنصر بشرى - يجلدون فى اليمن مهرباً ومأمناً لهم من بطش

الأمباطورية الرومانية التي اعتنقت المسيحية في وقت مبكر ، وفرضت سلطتها على منطقة الشام بأكملها ، والحصول على فرص العيش والبقاء في سلام^(١) . ومع ذلك فإن اليمنيين الذين لم تكن معتقداتهم القديمة الساذجة تحتل أى دور حقيقى فى حياتهم لم يتأثروا قط ومن باب أولى بهاتين الديانتين المفرقتين فى التعقيد واللاهوتية والميتافيزيقات والدخول فى صراعاتهما المريرة ، ولم يعتنق المجتمع اليمنى أى منهما أو يدين بهما أحد فى تلك المرحلة المبكرة على المستوى الرسمى ، ولا على المستوى الشعبى العام ، لأن ذلك يثنافا وطبيعة التكوين الحضارى والعقلى والاجتماعى القائم والمزدهر من ناحية ، ولأن اليمنيين كان عندهم ما هو أهم وأجدى من مفاهيم الحياة ومضامينها العقلية والإنسانية ، ولديهم ما يعطون أكثر مما يأخذون ، ومشغولين بما هو أجدى من شئون البناء والتعمير الاقتصادى والسياسى والصراع مع الطبيعة بروح العقل والعلمانية التى لا تعطيهـم الوقت ولا تفـسح فى نفوسهم وعقولهم المجال للاهتمام باللاهوتيات والميتافيزيقات ، وتلك هى الحقيقة الأولى .

(ب) الحقيقة الثانية هى أنه حينما توالى عوامل الزمن على أوضاعهم السياسية والاجتماعية ، وتعرضت مرافقهم الاقتصادية الحيوية للخراب من مئات وعشرات السدود وغيرها ، وتفاقت خلافات دولهم وإماراتهم نتيجة لذلك ، وآلت جميع أمورهم السياسية والاجتماعية لإحمالها إلى الانهيار والسقوط الحقيقى بعد خراب مرافق حياتهم الاقتصادية والإدارية ، فى هذا الظرف بالذات الذى بدأت تلوح فى أفقه ملامح أطماع أجنبية واسعة فارسية ورومانية للفوز بنصيب الأسد من كل ما تحمله الأرض السعيدة كما سماها الرومان ، وبعد قرابة خمسة قرون كاملة من ظهور المسيحية فى الشمال وعشرات القرون من ظهور اليهودية ، فى هذا الظرف بالذات أدرك اليمينيون حقيقة هامة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة بأن زمام المبادرة قد أفلت من أيديهم ، وأن شيئاً مهماً فى نفوسهم ووجدانهم قد تصدع وفقد ، بينما

(١) د جواد على : الفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام الجزء السادس ص ٥٣٨ .

ثقل الأحداث والمتغيرات تنوء بكاهلها فوق رؤوسهم وتقرع أبوابهم كل يوم بلا توقف ، ووضعوا بذلك أمام ثلاثة خيارات رئيسية يمكن أن يواجهها أى مجتمع حضارى فى مثل هذا الوضع ، فلما أن ينطووا على أنفسهم وعلى ما تبقى فيها من أنقاض متداعية ، ويختزلوا تاريخهم كله فى شكل عقدة ذنب نفسية وحضارية متصلبة يتلذذون بتعذيب أنفسهم من خلالها بقية تاريخهم القادم ، على النمط البوذى فى الهند ، أو اليهودية عند حائط المبكى ، أو الشيعة أخيراً فى كربلاء والتجف وبلاد الهند ، ويديروا ظهورهم نحو كل المتغيرات لتفعل بهم ما تشاء ، إنتظاراً ليوم ميعاد جديد على الطريقة اليهودية ، أو نزول المسيح من السماء على الطريقة النصرانية ، أو إنتظار إمام الزمان المخفى فى احدى السرايب حتى يظهر ليلاً الأرض عدلاً بعد أن ملأت جوراء على طريقة غلاة الشيعة المتأخرين فى الأسلام ؟ وذلك هو الخيار الأول.

ولما أن يستسلموا لكل ما تأتى به المتغيرات ويتلعهو بغير تنوق ولا خيار أو نقاش ، ويتقصصوا شخصية حضارية جديدة مقطوعة الصلة والجذور بكل ما قبلها ، ولا يقتصر الدور فى هذه الحالة على اعتناق اليهودية أو المسيحية كديانة ، بل لابد وأن يصبحوا كذلك إما إسرائيليين أو أحباشاً أو روماناً أو فرساً ، ديناً ولغة وثقافة وقومية ! ! ، وهذا هو الخيار الثانى ، ولما أن ينطلقوا وهم فى ضعفهم ومحنهم للبحث عن ذاتهم المفقودة أو ما يعوضهم عنها من مفاهيم ومتغيرات تنسجم وأصول تكوينهم الحضارى ، وذلك بالتفتيش والبحث عن ذلك من خلال التعامل مع كل الأحداث والمتغيرات الجارية نفسها بروح من الحنن والأحاساس بالقلق النسبى ، الذى لا يسمح بحالة اللامبالاة والجمود والسلبية المتحجرة ، كما فى الخيار الأول ولابنزعة الاندفاع والانفعال المرضى والمحطم لحالة التوازن النفسى والحضارى الضرورية تجاه وطأة المتغيرات والأحداث والدوبان فيها كما فى الخيار الثانى ، ويجربوا عما إذا كان فى مقدور مثل هذه المتغيرات أن تقدم لهم تعويضاً لما فقدوه ، وحلاً لما يعانونه ، وبالطريقة التى يفهمونها هم ، لابعاً قد ترغب هذه المتغيرات أن تفرضه عليهم ، وكان هذا حقيقة هو الخيار الثالث الذى تم الأخذ به بطريقة تلقائية وجدلية .

لأننا إذا ملاحظنا من خلال كل التحليلات السابقة ، بأن المضامين المادية والمعنوية لجوهر التكوين الاجتماعى والحضارى للمجتمع العيني القديم ، القائمة على العقل والممارسة العملية ، لأدركنا أنه كان من المستحيل أن تنتهى به فى حالة الضعف والسقوط إلى تبنى الاختيار الأول الذى لا نجد له أى صلة أو علاقة أو أصول سابقة فى مرحلة ما قبل السقوط ، بحيث يصير تبنيه هو النتيجة الطبيعية والجدلية الممكنة ، لشدة التنافر والاختلاف بين المقدمات والنتائج فى هذه الحالة ، ولأدركنا كذلك بأن إمكانية تطبيق الاختيار الثانى هو أشد صعوبة واستحالة على أى مستوى من مستويات العقل والمنطق الجدلى والعملى ، وأن الاختيار الثالث هو الأقرب إلى طبيعة الأمور وحقيقتها ، وأن القول به كنتيجة منطقية وجدلية وواقعية لكل المقدمات التى سبقت هو الأصح ، وهو ماتم بالفعل وتؤيده كل الدلائل والقرائن المادية والمعنوية والتاريخية حتى اليوم .

ولقد كان أول ما وجده اليمينيون من الأحداث والمتغيرات الجارية من حولهم وهم يعيشون المراحل الأولى من هذا الاختيار الصعب هى- كما رأينا الديانة اليهودية والمسيحية بكل ماحلتاه معهما من مضامين سياسية واجتماعية وميتافيزيقية جديدة مباشرة وغير مباشرة ، فدخلوهما بسرعة « البرق » لاحقاً فيهما ، أو لأنهم اكتشفوهما لأول مرة ، لأنهم كانوا يعرفون بوجودهما منذ زمن طويل أكثر من غيرهم ، وإنما بحثاً عن أنفسهم وذاتهم الحضارية الطريفة والمشردة من خلالهما ، ثم ما لبثوا أن خرجوا منها بسرعة حينما لم يجدوا فيهما ما يعرضهم عما فقدوه فحسب ، بل إن وصولهما إليهم ودخلولهم فيهما قد ضاعف من تمزقهم واغترابهم النفسى ، وأوقعهم تحت طائلة الاحتلال الأجنبى ، كما سبقت الإشارة ، فخرجوا منها بسرعة بحثاً عن أحداث ومتغيرات جديدة للتشرد والبحث فى نطاقها من جديد عن الضالة التى صار الأمل فى العثور عليها أكثر غموضاً ، وتلك هى الحقيقة الثانية .

(ج) إن الدعوة الإسلامية التى وافقت إبان هذا المنعطف الصعب فى حياة المجتمع العينى ، قد التقطتها أنفاس اليمينيين وأرواحهم المنهكة بسرعة أيضاً ،

لأنهم أدركوا وأحسوا فيها حقيقة ما يدركه الغريق المهلك الذى يلفظ أنفاسه جيناً يمسك بقطعة من الخشب أو قشة من العشب ، لكى يتمكن من خلال التثبت بها من إسترجاع أنفاسه فوق سطح الماء على الأقل ، وأحسوا بقربهم منها وبقربها من نفوسهم ، حيث كان يكفى لان يستجيبوا لها ويدافعوا عنها ويتوسموا من خلالها كل أمل مشرق لمجرد أنها دعوة أخوة وقربى عربية ، فما بالنا وقد حملت معها الى جانب كل ذلك الكثير من المعانى والأخلاقيات الإنسانية المضنية ، إلا أن العقدة الحضارية التى تأصلت بمرور الوقت فى نفوس اليمنيين ، عقدة البحث عن الذات المفقودة وضرورة تأكيدها ، كما يتصورونها هم وكما تفرضها المتغيرات ظلت هى الشرط المسبق وغير القابل للنقاش فى كل المواقف القديمة والحديثة ، وهى صمام الأمن الحقيقى بالنسبة لليمنيين ، التى أسبىء تقديرها فى أواخر عهد الرسول ، وبداية خلافة أبى بكر كما سبقت الإشارة الى ذلك بالنسبة لأهمية الاستقلال الوطنى من بقايا النفوذ الفارصى أولاً ، والبدء فى ترسيخ دولة عربية إسلامية موحدة ومتحضرة ، يكون لهم دورهم المناسب فيها ، هو الشرط المباشر وغير المباشر الذى تمحس اليمنيون بناء عليه للدعوة الإسلامية ، ولما خاب أملهم فى ذلك كان رد الفعل المباشر ببساطة وبنفس السرعة فى أواخر عهد الرسول نفسه ، ثم فى عهد أبى بكر ، ولم ينته الأمر إلا بإنهاء سوء التقدير نفسه كما سبقت الإشارة أيضاً بإزالة حكم الأبناء من صنعاء .

(د) إن اليمنيين قد وجدوا بعد ذلك تحت قيادة أبى بكر وعمر وكما وجدوا قبل ذلك فى عهد الرسول وبداية الدعوة العديد من الفرص التى ترجوا من خلالها كل طموحات نفوسهم ومكنون استعداداتهم الحضارية ، فى إيواء ومناصرة الدعوة والانتصار لها ، وتوطيد أسس دولة عربية موحدة فى الجزيرة العربية لأول مرة ، ذات أسس اجتماعية عادلة ومفاهيم إنسانية متحضرة ، ثم حملها إلى خارج الجزيرة فى عهد أبى بكر وعمر على نفس الوتيرة وبنفس المضامين ، حتى تغيرت الأحوال بالنسبة لليمنيين وغير اليمنيين ولجوهر الدعوة نفسها ، بعودة الأرستقراطية الأموية والقرشية القديمة إلى السلطة ، وهى التى حاربت الدعوة خوفاً وحرصاً على مصالحها الاقتصادية والطبقية المهددة ، ولم تقربها إلا بالقوة بعد فتح مكة ، فتغيرت بذلك الكثير من الأحوال

والمسارات التاريخية ، ووضع الكل أمام مفترق الطرق من جديد وبلا رجعة تقريباً حتى اليوم كما سبقت الإشارة أيضاً ، وذهب اليمينيون كل مذهب للبحث عن وجودهم وذاتهم من جديد سواء كانوا داخل موطنهم الأصلي أو خارجه ، فتراهم إما قسمة بين المتصارعين على السلطة من أمويين وعلويين أولاً ، ثم عباسيين وفاطميين ثانياً ، وكأنهم ينتقمون من هؤلاء المتصارعين ومن أنفسهم في آن واحد ، وإما قادة وجنود فتوحات وحروب وهجرات مוגلة في الاندفاع شرقاً وغرباً وشمالاً ؛ بحثاً عن مكان أرغد للعيش وهوية جديدة للبقاء والاستمرار تحت كل سماء خارج موطنهم ، تاركين من تبقى فيه نهياً للتصرفات العشوائية في نطاق الدولة والخلافات الإسلامية المتتالية وحتى عهد ليس بالبعيد ، إن لم يكن الأمر ما يزال كذلك حتى اليوم بصورة أو بأخرى . ذلك أنه بالرغم من أن معالم الطريق الجديد والصحيح هي اليوم أكثر وضوحاً ونضجاً من أى وقت مضى إلا أن هذا الطريق ما يزال طويلاً ومحفوفاً بالمخاطر وجدير بكل التوضيحات .

فإذا كان اليمينيون اليوم يقفون على أبواب أشجع تجربة إنسانية معاصرة في البلاد النامية ، ويبحثون من خلالها عن وحدتهم وهويتهم الحقيقية وطموحاتهم التاريخية في وحدة وبناء المجتمع الاشتراكي المتقدم ، فإنه لابد وأن نعى جيداً وبلا أدنى شك بأن أهم المنطلقات التي تقام على أساسها هذه التجربة وتناط بها كل طموحات وآمال اليمين الحاضرة والمستقبلية ، هي كما رأينا في كل الصفحات السابقة منطلقات أصيلة في واقعنا وتاريخنا ووجودنا نفسه وليست غريبة عنا ، وأن الوعي بها والاعتماد عليها هو عودة إلى الأصل بقدر ما هو إنطلاق نحو المستقبل المشرق .